

جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

آفاق التجربة
في شعر تميم بن المعز

دكتور

عبد الرحمن عبد الحكيم عبد الرحمن

المدرس بقسم الأدب والنقد

بكلية اللغة العربية بأسسيوط

جامعة الأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،،

فإن الحقبة التي قضاها الفاطميون في مصر هي مرحلة تاريخية لا يمكن تجاهلها أو التغافل عنها ؛ وذلك لما تكون لهذه الدولة من رصيد سياسي وثقافي وحضاري وعقدي وأدبي ؛ كان له أثره الواضح في الشخصية المصرية خصوصاً والمجتمع المصري عموماً وهو أثر لا تزال بعض ملامحه باقية حتى عصرنا هذا. ولقد كانت هذه الدولة عامرة بالعلماء والأدباء والشعراء ؛ الذين برزوا في ميدان الشعر ، وفي طليعتهم شاعرنا الذي نحن بصدد دراسة التجربة الشعرية في إبداعه إنه " تميم بن المعز لدين الله " الذي ينتمي إلى أسرة هي عماد تلك الدولة، والذي يتمتع بموهبة لفتت أنظار دارسي الأدب وأصحاب النقد إليه ؛ وذلك بما له من نتاج شعري كبير إذا قيس بحياته القصيرة التي لا تكاد تتجاوز السبعة والثلاثين عاماً .

ولقد كانت حياة هذا الشاعر تعج بالأحداث الكبار ؛ مما جعل للتجربة دورها الكبير والواضح في إبداعه الشعري ، فإذا أضفنا إلى ذلك كله العدد القليل من الدراسات التي انصبت على إبداع تميم ؛ أمكننا القول بأن هذا الشاعر جدير بأن يتوجه الباحث إلى دراسة عنصر من أهم عناصر الإبداع في شعره

ولسنا نزعم أن هذا البحث هو باكورة البحوث التي تناولت شعر تميم فقد سبقته دراسات متعددة من مثل : ما كتبه عبد المجيد عطية في كتابه : تميم بن المعز، وما كتبه أحمد سيد محمد في كتابه : نقائض ابن المعتز و تميم بن المعز ، وما كتبه حفني شرف في كتابه : تميم بن المعز لدين الله الفاطمي - غير أن هذه الدراسات قد انصبت على حياة الشاعر حيناً ، وعلى إبداعه في مجمله حيناً آخر . أما دراسة عنصر التجربة في شعره فلم نر من الباحثين من خصص له دراسة مستقلة فيما نعلم ؛ ومن ثم كان توجه الباحث إلى هذا العنصر الذي لا تخطئ أهميته عين في شعر تميم ؛ فتناوله تناولاً يكشف عن قيمته في الإبداع من ناحية ، وفي إبراز موهبته وملكته من ناحية أخرى .

ولقد كان منهجي في هذه الدراسة هو منهج التحليل النقدي ؛ الذي يسبر أغوار النص ، ومن ثم تتبدى أمام أعيننا أبعاد شخصية المبدع المختلفة ، وجوانبها المتعددة ، غير أن الباحث قد يستدعي المناهج النقدية الأخرى ؛ متى دعت إلى ذلك طبيعة البحث .

وخطة هذه الدراسة تقوم في مجملها على : مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول، وخاتمة .

المقدمة : وفيها منهج الدراسة والخطة التي تقوم عليها .

التمهيد : وهو بعنوان (الشاعر والتجربة) وفيه مبحثان الأول : تميم بن المعز حياته وإبداعه ، الثاني : التجربة الشعرية دراسة في المصطلح والتشكيل والوظيفة .

الفصل الأول بعنوان مصادر التجربة في شعر تميم وفيه ستة مباحث :

- ١- المشاعر الذاتية والعواطف الشخصية .
- ٢- العقيدة .
- ٣- الغربة والحنين .
- ٤- الطبيعة .
- ٥- الزمان .
- ٦- المكان .

الفصل الثاني وعنوانه : أبعاد التجربة في شعر تميم وفيه ستة مباحث :

- ١- التجربة الذاتية .
 - ٢- التجربة الإنسانية .
 - ٣- التجربة النفسية .
 - ٤- التجربة التاريخية .
 - ٥- التجربة الاجتماعية .
 - ٦- التجربة الخيالية .
- الفصل الثالث وعنوانه : التجربة وبناء النص وفيه ثلاثة مباحث :
- الأول : التجربة ولغة القصيدة .
- الثاني : التجربة والصورة الشعرية .
- الثالث : التجربة والموسيقا .
- الخاتمة : وترصد أهم النتائج والتوصيات التي انتهى إليها البحث .

هذا والله التوفيق

د / عبدالرحمن عبدالحكيم عبدالرحمن

التمهيد (الشاعر والتجربة)

المبحث الأول

تميم ابن المعز حياته وإبداعه

قبل أن نلج إلى موضوع الدراسة نرى لزاماً علينا أن نقدم لها بحديث موجز عن الشاعر ؛ نتناول فيه نشأته وحياته وبيئته ؛ وذلك لما لتلك الأمور من تأثير في الإبداع الأدبي عموماً ، والتجربة الشعرية خصوصاً وشاعرنا الذي نحن بصدد دراسة التجربة في إبداعه هو " تميم بن المعز ابن المنصور بن القائم بن المهدي " وكنيته " أبو علي " (١) . وأكثر المترجمين له يذكرون أنه ولد سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة (٢) . وفي شعر تميم ما يؤيد هذا التاريخ فقد أشد في سنة سبع وستين وثلاث مائة ما يمكن أن نفهم منه أنه قد كان حينئذ في الثلاثين من عمره فما هو ذا يقول :

ولم يبلغ العمرُ بي من سنِيهِ ثلاثين حتى بلغتُ المَدَى (٣)

وعلى الرغم من أن الشاعر ينتمي إلى أسرة حاكمة مشهورة ذائعة الصيت ؛ إلا أن حياته (وبخاصة نشأته الأولى) قد أسدل عليها ستار كثيف من الغموض والكتمان ، ولم يشفع له كونه أميراً ، وأبيه خليفة ، وأخيه كذلك ؛ فلم يعرج أكثر

(١) صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي - الوافي بالوفيات جـ ١٠ ص ٤١١ طبعة : دار صادر ، بيروت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م .

(٢) نفسه ص ٤١٢ .

(٣) ديوان تميم بن المعز (الباكوره) ص ٧ تقديم أ.د / إبراهيم الدسوقي جاد الرب . الهيئة العامة لقصور الثقافة الذخائر عدد (٨٤) ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧ .

المترجمين له على حياته الأولى ، ولم نر عندهم إلا إشارات خاطفة إلى سنة مولده ، ومكان ولادته .

ولد في خلافة جده المنصور بمدينة المنصورية (وهي حاضرة الفاطميين حينئذ) وقد عاش بها الشاعر مراحل حياته الأولى ولا شك أنه عاش حياة الملوك وتقلب بين أعطاف النعيم ، واستمرت حياته بها إلى أن قدم مع أبيه إلى مصر في السادسة والعشرين من عمره .

إن القراءة في شعر تميم تجعلنا ندرك أنه قد نشأ في ظل أسرة تحب العلم والأدب ، وتقرب العلماء ، وتجزل العطاء للشعراء ، ومن ثم كانت مجالسهم عامرة بكل هؤلاء .

وتذكر كتب التاريخ أن من هذه الأسرة من تقلد بقلادة العلم ، ومملك زمام اللغة والشعر، و كان المعز نفسه عالماً فيلسوفاً ، يحب اللغة والأدب ، ولا شك أن والده قد عني بتربية ولده كما كان عادة ملوك هذا الزمان ؛ ومن ثم أوكل إلى العلماء والأدباء مهمة تعليمه وتأديبه ، وهذا ما تلمحه في شعره ؛ الذي يحوي إشارات إلى معرفته بالعلوم والآداب والفلسفة ، ولا شك أيضاً أن الشاعر قد استفاد من مجالس الأدب والعلم في قصور أبيه الخليفة وأخيه أيضاً ولسنا نشك في أن الشاعر قد أفاد من المكتبة الزاخرة التي ذكر المؤرخون أن المعز كان حريصاً عليها مشغولاً بها وقد انعكس ذلك كله على شخصية الشاعر من ناحية وعلى إبداعه من ناحية أخرى ؛ فاتسع خياله ، وتعمق فكره ، وتنوعت خبراته وتجاربه .

وتبعاً لهذا الغموض الذي رأيناه في مراحل حياة الشاعر الأولى ؛ رأينا غموضاً آخر يلف حياته العلمية ؛ فإذا كان من الطبيعي في هذا الزمان أن يقدم الملوك أولادهم إلى العلماء والمربين ؛ فإن كتب التراجم لم تذكر شيئاً عن أساتذة الشاعر الذين تأثر بهم في إبداعه وثقافته ، غير أن مطالعتنا لإبداعه تجعلنا

نتصور أن تميماً قد تأثر كثيراً بـ " عبد الله بن المعتز " و " ابن هانئ " الأندلسي فعارضهم بقصائد ، وناقضهم بأخرى .

وإذا كان الغموض قد لف حياة الشاعر الأولى فإننا يمكن أن نتصور شيئاً من هذه الحياة من خلال الإشارات اليسيرة ؛ التي أوردها المترجمون له ، فقد ولد بمدينة المنصورية ونشأ في قصورها ومشى في ربا تونس ورياضها . ولد في خلافة جده الذي فرح به أيما فرح ، ولا شك أنه تصور - هو ووالده والعبيديون جميعاً - أن هذا الطفل سيكون الخليفة المنتظر ، ولكنهم ما دروا أنه سيلج باباً غير بابهم ، ويتقلد قلادة الشعر والأدب بديلاً لتاج الملك والحكم .

ونشأة تميم تنبئ بمستقبله ، فحين قطع مرحلة الطفولة البريئة ، ودخل دور المراهقة ؛ بدأ ينحرف عن الطريق السوي ، ففي حدائق تونس الغناء ورياضها كان الشاعر يقيم مجالس اللهو والشراب ، ويمارس المجون واللهو بمختلف ألوانه ، ويسوء سلوك الفتى ، فيدرك أبوه المعز ذلك ببصيرته النافذة ، وحرصه على مراقبة ولي عهده المنتظر ؛ فحزن لذلك حزناً شديداً ، وغضب لسمعته وسمعة أسرته ؛ ذلك أنه رأى أن فتاه قد وقع فيما كان يدعو " المعز " عيباً على خصومه ، ويوجه من خلاله سهام نقده إليهم ^(١) .

وعبث الشاعر وسوء مسلكه تبرزه إشارة في الديوان ومن خلالها نفهم أن المعز قد ولي ابنه " تميماً " إحدى الوظائف ، وربما كان اختباراً لقدرة على السياسة ، وتدريباً له على القيادة - ولكن " تميماً " كما يبدو قد فشل في مهمته ؛ فقد (ركب الأمير يوماً إلى بعض البساتين بالمنصورية ؛ فأرسل المعز في طلبه للخدمة التي كان يتولاها بين يديه ، فجاء مبادراً وتعذر لقائه) ^(٢) .

(١) انظر : القاضي النعمان - المجالس والمسائرات مجلد جـ ١ صـ ١٧٠ مصورة بمكتبة

جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠ .

(٢) الديوان صـ ٣٤ .

وحجب المعز لابنه عن المثل بين يديه يشير إلى شدة غضبه وامتعاضه لسوء مسلكه ومن ثم كتب " تميم " إليه معتذراً ، ولعل سوء مسلك تميم وخوضه في اللهو واللعب - والذي تجاوز حدود المعقول المسموح به - قد كان سبباً أو على الأقل أحد الأسباب التي جعلت الخليفة يحرمه من ولاية العهد ، ويسندها إلى أخيه الأصغر " عبد الله " ، ومن بعد موته إلى أخيه " العزيز " ، غير أن ذلك لم يكن هو السبب الوحيد في حرمان الشاعر من ولاية العهد ؛ فتلك قضية نالت حظاً وافراً من المناقشة لدى القدماء والمحدثين ، وحظيت بكثير من التفسيرات بالقدر الذي ربما يزيد على ما تتحمله ؛ فها هو ذا ابن الأبار يعلل حرمان " تميم " من ولاية العهد فيقول : (ولاه أبوه المعز لدين الله معد بن إسماعيل المنصور عهده ، وبه يكنى ، فخلع برأي جوهر الصقلي لأنه كان عقيماً لا يولد له) (١) . غير أن كنية " تميم " أبو علي " قد تقدح في هذا السبب ؛ إذ إنها تشير إلى أن الشاعر ربما تزوج وأنجب ولداً اسمه " علي " ، كما تعضد ذلك بعض المصادر التاريخية ، على أن بعض الباحثين يرجح أن يكون السبب الحقيقي هو انصراف " تميم " إلى حياة اللهو والانشغال عن السياسة وأمور الدولة (٢) . ويعضد ذلك الرأي أن من يطالع شعر تميم لا يجد ظلالاً واضحة لما ذكرته بعض المصادر التاريخية من زواجه وإنجابه ؛ فلم نر له حديثاً شعرياً عن امرأة يمكن أن نعتبرها زوجة ، كما لم نر له حديثاً عن ابن يسمى علي ، وإذا اعتبرنا سوء العلاقة بين " المعز " وابنه سبباً من أسباب حرمان " تميم " من ولاية العهد ؛ أمكننا أن نفهم ما أوردته بعض المصادر القديمة ؛ من خيانة تميم لأبيه ، وتعاونه مع أعدائه ، فقد

(١) ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر، الحلة السرياء (ج ١ ص ٢٩١) ، الناشر:

دار المعارف - القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ م ، تحقيق : د / حسين مؤنس .

(٢) انظر : عبد المجيد عطية وآخرين - تميم بن المعز ص ٩ الشركة التونسية للتوزيع

اتصل بالثائرين على والده ، والمنازعين له في الخلافة من أبناء عمومته ، ودبر معهم المؤامرات ، ووقعت بينهم المراسلات ؛ فشك جوذر في ذلك واستأذن " المعز " في أن يفض هذه الرسائل ليعرف ما فيها فرفض " المعز " ذلك أولاً ثم وافق عليه بإلحاح من " جوذر " فكتب إليه : (يا جوذر ، كنت خاطبتنا في أمر كتب القصرين إلى دار تميم وغيره ، فأمرناك بترك التعرض لهم وإذ الله قد أجرى على فكرك ما فيه التوفيق ، ونحن ما نظن بأحد سوءاً من الأبعاد فكيف من الأقارب ، وقد ظهر لنا بعض ما نكرهه - فاعمل على حمل ما يكون من كتاب وغيره إلينا ، ولا تنفذ حتى نعرفنا به من حيث لا يشعر بك أحد البتة إن شاء الله) (١) . ولاشك أن المعز قد زاد حنقه واشتد ضيقه بمسلك ولده ؛ فحاصره وضيق عليه ، ولا شك أيضاً في أن تميم قد ازداد بغضة لأبيه ، ومن ثم اشتد في الغواية ، ومضى في الرزية ، وسلك مسالك السوء ؛ حتى روت بعض المصادر أنه قد تمادى في غيه الذي وصل حد الشذوذ ؛ فقد جاء في سيرة جوذر أن حاكم صقلية قد أرسل حفيده إلى قصر المعز للتعلم والتأدب ، وقد كان من عادة الفاطميين أن يضموا إلى بلاطهم أبناء الرؤساء وأحفادهم حتى يشبوا على الولاء لهم ، وقد لقي تميم حفيد حاكم صقلية ، فقامت بينهما علاقة حملت والد الصبي على التفكير في قتله ؛ فحزن المعز حزناً شديداً وأرسل معتذراً إلى والد الصبي ومحاوفاً معالجة هذه المشكلة (٢)

ولسنا نظن أن رجلاً كـ " المعز " بما له من حسن السياسة وشرف النسب يمكن أن يسند أمراً خطيراً كخلافة المسلمين إلى ابن هذا مسلكه ، ولكننا نعتقد أن سوء العلاقة بين الشاعر وأبيه لم يدم حتى النهاية ، ففي شعره قصائد تدل على

(١) الجوذري أبو علي منصور العزيمي، سيرة الأستاذ : جوذر ص ٩٩ ، ١٠٠ تحقيق /

محمد كامل حسين، و/ محمد عبد الهادي شعيرة - دار الفكر العربي القاهرة (دنت).

(٢) المصدر السابق ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

فتور تلك العلاقة بل ربما توترها ، وفيه أيضاً - وإن كان قليلاً - ما يشير إلى حب تميم لأبيه ، ورغبته في توثيق علاقته معه ، يضاف إلى ذلك ما رآه أحد الباحثين المحدثين من أنه لا يطمئن إلى خيانة " تميم " لأبيه ، أو ثورته على أخيه ، ففي رأيه : (أن مسألة الخلافة لم تكن تعني تميماً بالقدر الذي يدفعه إلى خيانة أبيه المعز ، والثورة على أخيه العزيز لأسباب أهمها : أن الخلافة كانت تتطلب منه سلوكاً معيناً لا يتفق وطبيعته ، وأن الجاه الذي يناله منها لم يكن محروماً منه ، وأن بعد الصيت أو دخول التاريخ من باب الأدب لا يقل عن دخوله من باب السياسة ، وله مثل في الشاعر الذي نال إعجابه وهو عبد الله بن المعتز وكل ما في الأمر أن المعز ومن حوله أدركوا تماماً أن تميماً لا يصلح أن يكون وصياً لخلافة تزعم عصمة من عليها ، وتدعي أنه بشر ليس كسائر البشر)^(١) وحسب هذا الرأي فـ " تميم " لم يطلب الخلافة ، ولم تطلبه ، وهو ليس محتاجاً إليها ، وكيفيه ما انتهى إليه من جاه ونسب وشهرة في ميدان الشعر والأدب ، كما أن المعز لم يحرم " تميم " ويمنعه من الخلافة ؛ إلا لأنه رأى أنه لا يصلح لها ، ولا تصلح له .

ونحن لا نستطيع أن نقبل هذا الرأي مطمئنين ؛ فإذا كان تميم لا يرغب في الخلافة مكتفياً بما حصله من جاه ونسب ، ووصله إلى الشهرة من باب الأدب ؛ فما معنى نبرة الحزن التي نلمسها في شعره أحياناً ، ثم ما معنى هذه الشكوى من الزمان ، والتبرم بالدهر في شعره أحياناً أخرى ، وأخيراً ما دلالات ما أوردته بعض المصادر من خيانة الشاعر لأبيه ، وتعاونه مع أعدائه ، وما سبب ذلك ، إن لم يكن ضيق الشاعر بما وقع عليه من ظلم من أبيه في رأيه ، يضاف إلى ذلك ما لاحظناه في بعض قصائده التي تحدث فيها عن أبيه مدحاً أو رثاءً من قصر

(١) نقائض ابن المعتز وتميم بن المعز ص ٦٢ ، ٦٣ ، د / أحمد سيد محمد ، دار

المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٨١ م .

النفس وضعف العاطفة وتكرار المعاني والأفكار ، ولا ننسى أن " تميماً " كسائر الناس له رغباته وتطلعاته ، فإذا قلنا إنه لم يهتم بهذه القضية ولم يطلبها ؛ فقد أغفلنا الجانب الإنساني فيه ، ولكن يمكن القول أن هذه المشكلة لم تستغرق حياة تميم ، ولم تشغله طوال عمره ، فقد اعترته لحظات تذكر فيها همه ومصابه .

وأما مجمل حياته فقد مضى يعيشها لاهياً لاعباً مستمتعاً بصحبته، وانغماسه بين الناس ، وما أهدق عليه أخوه العزيز من أموال وضياع ، هذا بالإضافة إلى متعة الشعر والأدب والتي كانت دواء عله ، وشفاء أسقامه ، ونلاحظ في حياة الشاعر أن علاقته بأخيه العزيز لم تفتقر إلا في فترات قليلة من حياته ، فقد أعطاه العزيز كل ما يطلب ، وأفاض عليه من المال والجاه ما جعل تميماً يعيش حياة سهلة رخية في ظلاله ، وهذا ما يفسر قوة القصائد التي مدح الشاعر فيها أخاه ، والتي كانت في معظمها نابغة من شعور قوي وعاطفة صادقة وعلى كل حال فقد مثلت قضية ولاية العهد ومنع " تميم " منها تجربة مريرة عاشها الشاعر وكانت نبعاً تدفق جزء لا بأس به من إبداع .

وتمضي حياة تميم على النحو الذي ذكرنا ، يحيا في ظل أسرة حاكمة ، ويعيش بين أب خليفة وأخ خليفة يحب أهله ، يمدح كبارهم ، ويرثي من مات منهم ، ويهتم كثيراً بأخيه العزيز ؛ فيرسل إليه أجمل مدائحه ، والتي تشير في وضوح إلى حب الشاعر لأخيه ، وتتناقض تماماً مع ما قاله ابن الأبار من أن تميماً (لما استقر في مصر ، وتوفى أبوه في شهر ربيع الآخر؛ سنة خمس وستين وثلاثمائة ، وولي أخوه يمدحه ويداربه طلباً للسلامة منه لأنه لم يكن يأمن عاديته بسبب انخلاقه عن العهد) (١) .

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٢٩٢ .

ولسنا نجد دليلاً على ذلك من شعر تميم ، ولا نعرف علام استند ابن الأبار في رأيه هذا ، وحقاً حاول الوشاة الواقعة بين الشاعر وأخيه فنفاه إلى الرملة حيناً ، ولكن ذلك لم يدم ، ولم يكن إلا على فترات قصيرة كما نفهم ذلك من شعره . وعلى كل حال مضى تميم يستمتع بحياته، يعيش في رحاب الطبيعة الصافية، يحظى بكل ما في الحياة من لذائذ ، ويحيا أجمل ما فيها من لحظات حتى أدركه الموت بعد قرابة سبع وثلاثين عاماً ، يذكر الصفي حدثاً وفاته بالتفصيل فيقول : " وتوفى أبو علي تميم المذكور سنة أربع وسبعين وثلاثمائة بمصر . وحضر أخوه العزيز الصلاة عليه في بستانه وغسله القاضي محمد بن النعمان ، وكفنه في ستين ثوباً وأخرجه مع المغرب من البستان ، وصلى عليه بالقرافة ، وحمله إلى القصر ، ودفنه في الحجرة التي فيها قبر أبيه المعز ، وقيل توفى سنة خمسة وسبعين " (١) والراجح أنه توفى سنة أربعة وسبعين وثلاثمائة استناداً إلى ما ذكره أكثر المترجمين له (٢) .

شعره :

لقد كان شعر " تميم " صورة لحياته وبيئته ومجتمعه من ناحية ، ومرآة تنعكس عليها خصائص شخصيته من ناحية أخرى ، لقد كان " تميم " محباً للطبيعة هائماً بها ؛ لذا رأينا شعر الوصف عموماً ووصف الطبيعة خصوصاً ؛ قد

(١) الوافي بالوفيات جـ ١٠ ص ٤١١ ، ٤١٢ .

(٢) انظر : ابن خلكان - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ ١ ص ٤٠١ دار صادر بيروت - تحقيق / إحسان عباس . وأبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام جـ ٨ ص ٣٩٨ - دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٣م تحقيق د / بشار عواد معروف . وأبو المعالي محمد بن الغزي - ديوان الإسلام جـ ٢ صه طبعة : دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، تحقيق سيد كسروي حسن .

نال حظاً وافراً في ديوانه ، والشاعر رقيق الحس ، يحب الجمال ، ويهيم به ؛ لذا رأينا شعر الغزل بأشكاله المختلفة قد سيطر على مساحة واسعة من إبداعه .

و " تميم " (كما عرفنا من تاريخه) يحب أهله ، ويتعصب لعقيدته ، ويدافع عن حقهم في الخلافة دفاعاً مستميتاً ؛ لذا رأينا شعر العقيدة الخالصة حيناً والملتزمة بالسياسة حيناً آخر؛ قد برز بوصفه غرضاً رئيساً من أغراض شعره، وحبّه لأهله ، وإقباله عليهم ، وانعطافه إليهم ؛ جعله يتوجه إليهم عموماً ، وإلى " العزيز " خصوصاً بأصفي مدائحه ، التي تفيض بعاطفة قوية ، وتعلن عن تجارب صادقة (إلا فيما ندر) وهذه العاطفة نفسها هي التي جعلت الشاعر يرثي من مات من أهله ؛ بقصائد تعلن عن شعور صادق وإحساس متوهج .

والشاعر معتر بنفسه فخور بأهله ومعتقده ؛ لذا كان شعر الفخر له رصيد وافر في ديوانه ، وفيه يعبر الشاعر عن حقائق ترسخت في وجدانه ، ومشاعر طالما خامرت خاطره .

ولما كانت حياة تميم تعج باللهو واللعب يقبل فيها على الدنيا وتقبل عليه ؛ رأيناه في مجالس خمر ومجون بين حدائق غناء ، ورياض ساحرة ، ومن هنا كان للخمريات نصيبها الكبير في شعره .

وهو شاعر رقيق وودود ، يحب المنادمة ، ويحسن الصحبة ؛ لذا كثرت مراسلاته الشعرية ، ورأينا للإخوانيات مكاناً في شعره ، وقد أشرنا قبل ذلك إلى ما وقع للأمير من حادثات ؛ شغلت باله ، وأرقت فكره ؛ لعل أبرزها حرمانه من ولاية العهد ؛ لذا رأينا شعر الشكوى مبنوثاً في إبداعه .

ولأن الشاعر حسن المنادمة ، يحب الناس ويحبونه ، يتواضع لهم ويعيش بينهم ؛ لذا قلت خصوماته ومن ثم كان شعر الهجاء هو أقل الأغراض انتشاراً في ديوانه .

والظاهرة التي لا تخطئها عين في ديوان الشاعر هي تشبيهه بابن المعتز الخليفة العباسي المتوفى ٢٩٦هـ ؛ فقد عارضه الشاعر بقصائد ، وناقضه بأخرى ، وفي كليهما سار على نهجه يتبع طريقته .

وكان التشبيه هو عماد الصورة في شعره ، وقد لاحظ هذه الظاهرة أكثر المترجمين له من القدماء ، ومنهم ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار ، وابن الأبار في الحلة السبراء ، فهو يقول عن تميم : إنه " شاعر أهل بيت العبيديين غير منازع ولا مدافع ، وكان فيهم كابن المعتز في بني العباس ؛ غزارة علم ، ومعاناة أدب ، وحسن تشبيه ، وإبداع تخيل ، وكان يفتفي آثاره ، ويصوغ على مناحيه في شعره أشعاره " (١) .

والمطالع لديوان " تميم " يلاحظ تصوير الشاعر لحياته في مصر على اختلاف ألوانها ، واتساع مجالاتها ، غير أننا لا نرى ظللاً لحياته الأولى التي عاشها في المغرب قبل قدومه إلى مصر ، وربما كان مرد ذلك إلى فقد جزء كبير من شعره في هذه المرحلة ؛ فمن غير المعقول أن تكون شاعرية تميم قد تفتحت فجأة عند وصوله إلى مصر ، ولا بد أن الشاعر قد عبر عن بينته وحياته الأولى ، وصورها في شعر لم يصل إلينا ، وهذا ما يرجحه بعض الكتاب المحدثين (٢) .

ويتضح من شعر " تميم " اتصاله ببيئته المصرية ، تشير إلى ذلك ألفاظه التي استقاها في معظمها من تلك البيئة ، هذا بالإضافة إلى المعاني والأفكار التي تعلن في سفور عن اتصاله بالثقافة المصرية ، وتعبر عن عمق العلاقة التي ربطته بالمجتمع المصري ، والذي تبدو معالمه من خلال رصد الشاعر لأماكن بعينها : كالنيل والخلجان والأديرة والقصور وغيرها .

(١) ابن الأبار - الحلة السبراء ج١ ص ٢٩١ .

(٢) انظر : د/ أحمد سيد محمد - نقاض ابن المعتز وتميم بن المعز . ص ١٣ وما بعدها

والمتابع لشعر " تميم " يلاحظ استخدامه لجميع بحور الشعر ، إلا المضارع والمقتضب اللذين أنكرهما " الأخفش " ، والمتدارك الذي نبذه " الخليل بن أحمد " ، وقد استخدم هذه البحور تامة ومجزوءة ^(١) ، وهذا يؤكد قدرة الشاعر على التنوع ، والتفنن في ضروب الشعر وأساليب الصياغة ، كما يشير إلى حس موسيقي ؛ يمكن الشاعر من الصياغة في بحور ؛ يصعب على الكثير النظم على تفاعيلها ؛ وهو ما يبرزه استخدامه بحر المنسرح ، الذي أنشد فيه ست عشرة قصيدة ، ومعلوم أن هذا البحر كثيراً ما يتجنبه الشعراء وقد تخلو منه الدواوين لطبيعة إيقاعه الصعب .

مما تقدم يبدو لنا أن شعر تميم كان مرآة لحياته ، وصورة لبيئته ، ولوحة برزت من خلالها معالم شخصيته ، ومن ثم كان شعره في مجمله صدى لتلك التجارب ، ونتيجة لهذه الخبرات ، وهذا ما جعل التجربة الشعرية عنصراً من أهم عناصر الإبداع في شعره .

(١) انظر : مقدمة ديوان تميم ص ٤١ .

المبحث الثاني

التجربة الشعرية

دراسة في المصطلح والتشكيل والوظيفة

قبل أن نلج إلى موضوع بحثنا وقضاياه الرئيسية ؛ نود أن نرسل إشارات خاطفة وومضات كاشفة حول هذا المصطلح النقدي المستحدث وذلك من حيث مفهومه وتشكله ، والدور الذي يؤديه في إبداع النص الشعري .

ولسنا نعتقد أنه بالإمكان إضافة الشيء الكثير في تلك القضية إذ إنها - فيما نعتقد - قد أخذت حلقها من التنظير والتقعيد من لدن النقاد على اختلاف توجهاتهم، وتباين انتماءاتهم ، ومع ذلك فقد رأينا لزماً علينا أن نقدم لدراسة التجربة في شعر " تميم " ؛ أن نضع ما يمكن أن يشكل أساساً لتلك الدراسة ، وقاعدة ينطلق منها الباحث في آفاق بحثه المتعددة ، وميادينه المختلفة. وفي هذا التنظير الموجز يركز الباحث على مفهوم هذا المصطلح ، ودوره في القصيدة ، وكيفية تشكله عند الشاعر ، والأثر الذي يحدثه لدى المتلقي .

وبدأئ ذي بدء نقول إن هذا المصطلح هو مصطلح نقدي جديد ، لم يظهر عند النقاد إلا في العصر الحديث ؛ فقد كان ظهوره تلبية لظروف العصر ومسايرة للتطور ، ومتابعة للراقي الحضاري شأنه في ذلك شأن كثير من المصطلحات النقدية مثل : الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية والالتزام والشكل والمضمون وغيرها ، على أننا لا نعدم إشارات سريعة في كتب القدماء حول مضمون هذا المصطلح ، نرى ذلك في حديثهم عن حال الشاعر ، وظروفه الداخلية والخارجية، والجو المسيطر عليه عند إبداعه للنص الشعري ، وليس أدل على ذلك من تلك المقولة التي تناقلتها كتب النقد القديم وهي أشعر الناس : امرؤ القيس إذا ركب ،

زهير إذا رغب ، والنابعة إذا رهب ، والأعشى إذا شرب ^(١) فالناقد في تلك المقولة وغيرها يلج إلى نفس الشاعر فيلمس تجربته ، ويتحسس بواعث إبداعه ، وهذا ما يؤكد معرفتهم بالتجربة من حيث مضمونها ، وإن لم يصرحوا بألفاظها . وترتبط التجربة بالنص ومبدعه ارتباطاً وثيقاً ، فما من شك أن لكل شاعر تجاربه ؛ التي تعد المحك الذي يغربل واقعه بخيره وشره على مستوى المعيشة ، والمخزون الثقافي ، أو الرصيد الاجتماعي ، وهي بدورها تحمل في طياتها هذا الكم الذي يمثل عناصرها الفعلية .

ويكاد يتفق النقاد في تصورهم للتجربة (ومن ثم لا نجد كبيراً من الاختلاف بينهم) في تعريفهم لهذا المصطلح . فالدكتور " غنيمي هلال " يرى أن المقصود بالتجربة هو (الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه) ^(٢) وأما الدكتور " عبد الحميد هلال " فيرى أن التجربة الشعرية تعني وقوع الشاعر (تحت سيطرة فكرة أو موضوع أو مشهد من الحياة ؛ فيتأثر بذلك وجدانه ، وينفعل به ، وتجيش به نفسه ، ويستغرق فيه استغراقاً كاملاً ، وتتحرك خواطره فيعبر عنه في صورة ملائمة، وحينئذ يكون الشاعر قد عبر عن تجربة شعرية) ^(٣) ويرى آخر أن التجربة هي (التعبير بالشعر عن التجربة الشعورية ، والتجربة الشعورية هي رد فعل نفسي لحدث مؤثر ، وبعبارة أدق هي استجابة وجدانية لمثير ما مادياً كان أو معنوياً) ^(٤) فالتجربة الشعرية إذن هي الجسم المادي الحي

(١) ابن رشيق القيرواني: أبو علي الحسن بن رشيق (ت ٤٥٦هـ): العمدة في محاسن الشعر

وأدابه ونقده جـ ١ ص ٩٥ تح/ محمد محي الدين عبد الحميد- مطبعة السعادة ط ٣/ ١٩٦٣م

(٢) النقد الأدبي الحديث ص ٣٦٣ طبعة نهضة مصر للطباعة ١٩٩٦.

(٣) في النقد الأدبي الحديث مذاهب وقضايا ص ٤٨ مطبعة الأمانة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٤) د / عبده عبد العزيز قلقليلة - التجربة الشعرية عند ابن المقرب ص ٦٧ النادي الأدبي

بالرياض ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م الطبعة الأولى .

للتجربة الشعورية .

وتكاد تتفق هذه التعريفات في مضمونها ودلالاتها ؛ فلنأخذ نرى خلافاً بينها إلا في طرق الصياغة ، وأساليب التعبير ، فالتجربة إذن كما نتصورها وكما نفهمها من كلام أصحاب النقد تعني : الحالة التي تسيطر على المبدع جراء مؤثرات داخلية وخارجية ، فتخرج في صورة نص شعري يعتمد مبدعه فيه على عدد من العناصر التي تشكله .

ولكي تكون التجربة ناجحة ومكتملة لابد لها من شروط يجب توافرها فيها ، ولعل أهم ما يجب توافره للتجربة هو اتضاح (الصورة النفسية اتضاحاً كاملاً في ذهن صاحبها ، لا يشوبها غموض أو إبهام ، ولابد أن تكون مرتبة في ذهنه ترتيباً دقيقاً قبل أن يشرع في صياغتها في الصورة الشعرية) (١) .

وإذن فلا بد للشاعر صاحب التجربة من أن تتضح في نفسه تجربته ، ويقف على أجزائها بفكره ، ويرتبها ترتيباً قبل أن يفكر في وضعها في إطار فني يتمثلها ، ولابد للشاعر أيضاً من أن يستغرق في تجربته ، وينفعل بها ، ويتفاعل معها ؛ حتى يستطيع نقلها إلينا في أدق ما يحيط بها من أحداث العالم الخارجي ؛ فتتمثل فيها الحياة وألوان الصراع التي تتمثل في النفس ، أو في الفرد ، إزاء الأحداث التي تحيط به (٢) .

وتم شرط لنجاح التجربة لابد من توافره ذلك أنه الأساس الذي تقوم عليه ، بل هو الأمر الذي لا وجود لها بدونه ، وذلك الأساس هو: الصدق الفني اللازم لها ، والمرتبط بها ، والمقصود بالصدق الفني هنا هو ذلك الشعور والانفعال المتولد في نفس الشاعر جراء صراع داخلي أو خارجي ومعنى ذلك (أن الشاعر لا ينجح في عمله إلا إذا كان صادق الانفعال والإحساس بما يعبر عنه - فهو

(١) د / عبد الحميد هلال عبد العزيز : في النقد الأدبي الحديث ص ٤٨ .

(٢) انظر : محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ص ٣٦٣ .

لا يستجيب إلا لما سيطر على روحه ، وملك على نفسه كيانه (١).
وإذا كانت العاطفة هي الأساس الذي تبنى عليه التجربة ، وإذا كانت المشاعر والأحاسيس هي عمادها ؛ فإن من الواجب على الشاعر أن لا يخضع لسيطرة العقل والقوى الفكرية وحدها ، فإنه إذا فعل ذلك جاءت قصيدته وقد افتقدت إلى الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه ، أساس العاطفة والمشاعر الوجدانية ؛ ذلك أن الشاعر لا يقوم بعمل عقلي بل إن مهمته تكاد تنحصر في عمل نفسي لغته الشعر وأما الأعمال الفكرية والعقلية فلغتها النثر .

ولسنا ننكر أن العقل والأفكار هي عنصر من عناصر التجربة ، ولكنه يأتي تالياً للعاطفة والمشاعر والإحساس ، فإذا استطاع الشاعر الجمع بين هذين العنصرين (وغيرهما من العناصر التي سنتحدث عنها) أمكننا أن نقول عن تجربته إنها تجربة نابضة بالحياة (تفتح عيوننا على حقائق قد لا تبين عنها حقائق الحياة ، أو حالات النفس كما تبدو لأكثر الناس . وقد تقصر كلمات اللغة وقواميسها عن الكشف عنها) (٢) .

وبناءً على ما تقدم يمكن القول إن الشعر الذي يخلو من صدق التجربة ، ونبض الحياة المنبعث من الجملة الشعرية ، بل من المفردة ، يعد شعراً ميتاً ليس ذا قيمة فنية ، تستوجب معالجة الناقد لها ، وتحليلها تحليلاً يكشف عن معطياتها؛ إذ هي - كما قدمنا - تخلو من نبض الحياة ؛ فهي جسد بلا روح ، ومن هذا الشعر ما يطلق عليه شعر المناسبات ، وهو شعر لا يقع الشاعر فيه تحت سيطرة التجربة على روحه ، ولا تستغرق نفسه تماماً ، ومن هذا النوع أيضاً ما يعرف بشعر التقليد الخاص ، وهو الشعر الذي يعمد فيه صاحبه إلى مجرد إظهار قدرته على النظم وإبداع التصوير ، كل هذه الأنماط من الشعر تخرج عن مجال التجربة،

(١) عبد الحميد هلال : في النقد الأدبي الحديث ص٤٨ - مطبعة الأمانة ١٩٨٢ .

(٢) د / محمد عنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ص٣٦٣ .

وتبتعد عن ميدانها .

وللتجربة عناصرها التي تشكلها ، ومكوناتها التي تتخلق من مجموعها ، وهذه العناصر تتمثل في الوجدان ، ونعني به المشاعر والأحاسيس والانفعالات التي تسيطر على الشاعر ، وتملك عليه كيانه ، ثم يأتي الفكر أو العقل الذي ينظم تلك المشاعر والأحاسيس ، ويرتبها في نفس الشاعر ، ثم هو بعد ذلك يؤدي وظيفة أخرى ، وهي الحد من جموح الخيال ، وخروجه إلى عالم من الوهم والتهويم ؛ فالعقل أو الفكر هو الذي يشرف على المشاعر والأحاسيس ويقوم بترتيبها وتنظيمها ، ولولاه لكانت خليطاً مضطرباً ؛ لا تسوده وحدة ، ولا ينظمه نظام ، ويمكن القول أن الفكر أو العقل هو الذي يؤلف بين شتيت العواطف ، ومختلف المشاعر ، ويجمع بين متناثرها ، ويكون بناءها .

ومن ثم يمكن القول إن الوجدان - مهما بلغت أهميته في التجربة - فإنه لا يمكنه أن يستقل بها ، كما لا يمكن للفكر أو العقل أن يستأثر بالتجربة ، أو يستولى عليها ؛ لأنه حينئذٍ يجفف منابع الحياة فيها .

ويأتي الخيال بوصفه عنصراً ثالثاً تتشكل منه التجربة ، وهو عنصر له دوره الذي يؤديه في تكوينها ، فهي لا غنى لها عنه ؛ إذ عن طريقه يتمكن الشاعر من نقلنا من عالمنا الحقيقي إلى عالمه النفسي ، وهو عالم يصعب الولوج إليه عن طريق ألفاظ اللغة الدالة على الحقيقة ، ومن ثم يأتي الخيال الذي يخرج الشاعر من هذه الإشكالية . فإذا اجتمع لدى الشاعر الوجدان والفكر والخيال ، واستطاع المزج بينهما يأتي العنصر الرابع المتمم للتجربة ، والذي لا يتحقق وجودها المادي بدونه ، وذلك العنصر هو الصورة التعبيرية بما تتضمنه من ألفاظ حقيقية موحية ، وتعبيرات مجازية بأشكال مختلفة ، وموسيقى داخلية ، وأخرى خارجية .

وفي هذه الصور التعبيرية تتجسد الحالة النفسية التي سيطرت على الشاعر عاطفياً وعقلياً ؛ ذلك أنه (ما يزال الشعر خاطراً يجيش في صدر الشاعر حتى

يجد مخرجاً ويصيب متنفساً، أي يتحول من رؤية مستبطنة إلى موقف ذي معالم ، وله كيان ينمو بمقدار نمو الرؤية ، وانكشافها لدى الشاعر (١) .

وما من وسيلة يملكها الشاعر لتحقيق ذلك سوى اللغة بأدواتها المختلفة ، وطرقها المتنوعة على أن ذلك مرهون بقدرة الشاعر على تمكنه من اللغة ، وتوظيفها توظيفاً يخدم مراده ، ويعبر عن مقصوده ، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق ربط التجربة باللغة ، وإحكام العلاقة بينهما ، وهو ما يبين عن قدرة الشاعر وموهبته القيمة الفنية لقصيدته ، وهذا ما يؤكد أكثر النقاد ويلحون عليه ، فـ " مصطفى عبد اللطيف السحرتي " يرى (إن القيمة الفنية للقصيدة هي في توائم تجربتها الشعرية مع صياغة هذه التجربة) (٢) فإذا استطاع الشاعر تحقيق تلك الموازنة؛ فلا يضره بعد ذلك أن يكون الموضوع كبيراً عظيماً، أو صغيراً حقيراً ، ما دام الشعور صادقاً ، والإحساس عميقاً ، والعاطفة حارة ، والانفعال سريعاً ، هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن يضيفه الشاعر على موضوعه من الخيال ، وحسن التصوير ، وجمال الصياغة ما يدخله في نطاق التجارب الجادة ، فالموضوع الهين الذي قد يبدو تافهاً يستطيع الشاعر بما أوتي من موهبة فنية ، ومقدرة لغوية أن يخلق منه تجربة إنسانية راقية إذ قد يبدو في جانب من جوانبه هيناً تافهاً بينما هو في جانب آخر - لا تراه إلا عين الفنان الموهوب - عظيماً يشف عن أحاسيس ومشاعر تتولد من خلالها تجربة إنسانية خالدة ، وهذا ما سوف نطالعه في ديوان الشاعر الذي نحن بصدد دراسة إبداعه الشعري .

على أن النقاد يفضلون الموضوعات العظيمة التي تكون صدى لتجارب عميقة

(١) د / عبد اللاه محمود حسن محروس : الظاهرة الأدبية في شعر الخوارج ص ٩١ -

مطبعة الأمانة الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

(٢) مصطفى عبد اللطيف السحرتي : الشعر المعاصر علي ضوء النقد الحديث ، ص ١٣ ،

تهامة للنشر ، جدة ، ط ٢ / ١٩٨٤ م .

في نفس الشاعر ؛ بحيث تمكنه من الانطلاق من عالمه النفسي الضيق إلى العالم الخارجي الفسيح ، غير أن ذلك يحتاج من الشاعر إلى موهبة فنية خاصة ومقدرة لغوية كبيرة يستطيع بها الشاعر أن يركب تجربته ، ويوائم بينها وبين صياغتها صياغة فنية — (كلما كبرت التجربة وسمت وعمقت احتاجت - لإفرازها - إلى مقدرة تضارعها ، وحتى تتحول إلى أدب يمثلها تمثيلاً صادقاً ، ويرضى عنها المنشئ تمام الرضا . وما استطاع أعظم المنشئين في جميع اللغات أن ينقلوا إلينا تجاربهم إلا لأنهم رزقوا مقدرة على الإفراز الأدبي - الخلق أو التعبير - تضارع إلهاماتهم العظيمة) (١) .

(١) د / محمد السعدي فرهود : قضايا النقد الأدبي الحديث ص ٩١ دار الطباعة المحمدية الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

الفصل الأول

مصادر التجربة في شعر تميم ابن المعز

التجربة الشعرية عند " تميم " من التجارب الخصبة الثرية ؛ التي نمت وربت بفعل روافد وينابيع دفعت ماء الحياة في جنباتها ، وأسهمت في سريان الروح في أوصالها ، وهذه الروافد متعددة ومتنوعة ، تأتي في طبيعتها : مشاعر الشاعر وعواطفه ، وهو الرافد الرئيس الذي لا غنى لبقية الروافد عنه ، ثم تأتي الطبيعة التي كانت بمثابة الأم الرعوم للشاعر ؛ يأوي إليها في أفراده وأتراحه ويبتها آماله وآلامه ، ولسنا نشك في أن العقيدة قد شكلت رافداً حيويًا استقى من خلاله الشاعر أخصب تجاربه ، ذلك أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بنفس الشاعر، وتمس إحساسه ومشاعره مساً رقيقاً ، ثم يكون الزمان والمكان رافدين يستعين بهما الشاعر بوصفهما إطاراً لتجربته ، وموضوعاً لبعض قصائده . وأخيراً يأتي الخيال رافداً يعالج من خلاله الشاعر قضايا يصعب عليه وعلى غيره معالجتها باللغة الحقيقية المباشرة .

على أن هناك روافد أخرى تتفرع من هذه الروافد ، وقد أسهمت بدورها أيضاً في إثراء تجربة الشاعر وإغنائها ، ومنها السياسة وقضاياها ، والرغبة في الشهرة الفنية، والعصبية للأهل والعقيدة ، ونحو ذلك مما قد يتصل بالروافد الرئيسية التي أشرنا إليها . ولسنا نشك في أن ثراء تجربة الشاعر وخصوبتها تزداد بازدياد روافدها ، وتعدد مصادرها ؛ ومن ثم كانت تجربة تميم من أغنى التجارب ، وأشدّها ثراءً ، وأكثرها خصوبة ؛ ذلك أن الشاعر قد عاش حياة عريضة تزدهم بالقضايا ، وتموج بالمشكلات ، وتعمر بالضجيج الذي أحدثه الشاعر ، والهزات التي أثرت في نفسه فأثارت مشاعره وأحاسيسه ، كما أثرت على البيئة المحيطة به وذلك بما مثله من خروج على الطابع العام ، والعادات والتقاليد التي ترتبط بمثل " تميم " ممن يعيشون حياة الحكم ، ويشبون في جنبات قصور الملك هذا كله على الرغم من قصر حياة الشاعر حيث مات في مقتبل العمر ، وريعان الشباب وهذا ما يشير إلى عبقرية الشاعر وموهبته ، وقدرته على الإبداع .

المبحث الأول

المشاعر الذاتية والعواطف الشخصية

تتصل التجربة بمشاعر المبدع ، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بإحساسه ؛ فتكتسب تلك التجربة قدراً من الصدق ، وهو ما ينعكس بدوره على إبداع الشاعر ، ومن ثم ترى خفة الكلمة ، وسهولة العبارة ، وجمال الصورة ، بالإضافة إلى خفة الوزن وحركته ، التي تكاد تكون متراقصة ، وهذا ما نلاحظه في مدح الشاعر لأبيه والذي لا نشك في صدق حبه له ، وقوة ارتباطه به على الرغم مما شاب علاقتهما من كدر ؛ جراء ظروف سياسية كان منبعها حرمانه من ولاية العهد ، ومع ذلك فإن الشاعر الرقيق ، صاحب الإحساس المتوهج ، والعواطف المتدفقة من الصعب أن يثبت على حال ، أو يقر على قرار ؛ ومن ثم فإن العلاقة الأبوية التي ربطته بوالده تطل برأسها أحياناً من خلال حاجة الشاعر إلى والده، ورغبته في نيل عطفه والاستئثار بحنانه ، وهو ما يتلاشى معه الشعور المعاكس ، أو العاطفة غير الطبيعية . ولسنا نجد دليلاً على ما ذكرناه أكبر من شعر الشاعر نفسه فما هو ذا يمدح والده بقصيدة مطلعها : -

يا من حوى الفضل وحاز الفخرا	وكسف الشمسَ وفاق البدرا
إني وإن أتعبتُ فيك الفكرا	حتى أجَدْتُ وزنه والنثرا
لمستقلّ لُعلاك الشعرا	يا من إذا ما جاد فاق القطرا
ويتبع المعروفَ منه العذرا	ويبذل المال ويَشري الشُكرا
قَصْرَتْ إن خَلْتُ نَدَاك البحرا	وكيف يحكي المستطابُ المرأ (١)

والمعاني وإن كانت معادة مكررة ، ليس فيها جدة ولا ابتكار إلا أن سعة خيال الشاعر ، وكثرة صورهِ ، وسهولة لفظهِ ، واتساق عباراته واستخدام وزن

(١) ديوان تميم بن المعز (الباكورة) ص ١٨٤ .

من الأوزان الخفيفة السهلة ؛ قد ألبس تلك المعاني ثوباً جديداً ، وأضاف إليها من عاطفة الشاعر وإحساسه ما جعلها ترقى إلى مستوى المعاني النبيلة والمضامين السامية

و " تميم " شاعر ذو بصيرة نافذة ، وخيال واسع تتمثل التجربة في خاطره بكل أشكالها وصورها ، ومن ثم تبدو في ثوب شعري قشيب ، وما ذلك إلا لأن (نفس الشاعر متسعة اتساع الأبد ، فهي تتسع للوجود ومظاهره ، ولما يضطرب به الناس في الحياة ، ولما يتصور في عالم الخيال ، وذلك كله ينعكس في نفس الشاعر ، ويهيج فيها مختلف الانفعالات والعواطف والأحاسيس . وأقرب المواد التي يستقي منها الشاعر موضوعه هي مشاعره) (١) .

ولما كان شاعرنا ذا بصيرة نافذة ، ونفس متسعة رحبية فقد توافر لديه من الأحاسيس والمشاعر ما يؤهله إلى استقبال التجربة وصياغتها ؛ لذلك قد تخرج التجربة عن نطاق مشاعره ؛ ومحيطه الداخلي ، ومع هذا نجده وقد أحسن استيعابها ، وأجاد صياغتها ؛ فقد لا يكون عانى التجربة بنفسه ، ولكنه لاحظها وعرف بفكره عناصرها، وآمن بها ، ودبت في نفسه حماها ؛ لذلك تراه قد انفعّل بها ، وتفاعل معها ، وتشربت روحه بها ، وهنا يأتي دور الشاعر المتمكن من أدواته ، والتي تتمثل في دقة الملاحظة ، وقوة الذاكرة ، وسعة الخيال ، وعمق التفكير، وهي أدوات لا نشك في تمتع الشاعر بها ، وإمساكه بزمامها ؛ لذلك رأينا لديه القدرة على تخليق هذا النوع من التجارب؛ التي تقوم على تصور الشاعر لها عن قرب ، ومثل هذا النوع من التجارب نراه في تلك الأوصاف التي تناثرت في شعر " تميم " ؛ فهذا هو ذا يصف فرساً لأخيه " العزيز " ، فنراه وقد أعجب بهذا الفرس إعجاباً شديداً، ومن ثم لاحظ أوصافه وخصائصه، فبثها في شعره ممزوجة بمشاعره وعاطفته نحو هذا الفرس ، ومن هنا رأينا التجربة وليدة الملاحظة

(١) د / محمد السعدي فرهود - قضايا النقد الأدبي الحديث ص ٩١ .

والتي يختلط فيها الحس الخارجي بالإحساس الداخلي انظر إليه يقول :-

نِعْمَ المعين على الوعى في مَأزق لبست به الأبطالُ نَقَعَ القَسْطِلِ (١)
 فرس أشم المنكبين مقابل يرمي الجنادل (٢) من يديه بجندل
 تُتبيك عن أفعاله أعضاؤه حُسْنَا وعن أخراه عِتْقُ الأوَّلِ
 عَجْرٌ (٣) الوظيفِ كأنَّ لُونِ أديمه حُبْكُ (٤) السحابِ بَعَارٍ مُتَهَلِّلِ (٥)

إن هذا الفرس من أحسن الأفراس ، وأشدّها إعانة لصاحبه في المعارك وهو يثير الغبار الذي يلف الأبطال ؛ وذلك لسرعة كره وفره إنه فرس أشم قوي ، مرتفع المنكبين سريع ، يدفع الصخرة بقدمه ؛ فترطم الصخور بعضها ببعض لشدة عدوه ، وقوة أعضائه إذا رأيت أعضائه وأجزاء جسده علمت مقداره ، وعرفت فعاله فقد جمع الحسن كله ، وضم القوة بكل أشكالها ، إن لون جلده يشبه السحاب الممزوجة بالعارض المتهلل ؛ فهو أبيض لامع ذو بريق ، يجذب إليه الأنظار .

- (١) النقع : الغبار ، القسطل : الغبار الساطع ، نقع القسطل : المنعقد . ابن منظور لسان العرب مادة قسطل / محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأنصاري ، دار صادر بيروت ط ٣ / ١٤١٤هـ - ١١٤٣هـ ص ٥٥٧ .
- (٢) الجندل الحجارة : وهي الجندل بفتح الجيم والنون وكسر الدال ، المكان الغليظ فيه حجارة ابن منظور - اللسان ج ١١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ مادة جندل .
- (٣) العجر : الغليظ ، والوظيف لكل ذي أربع : ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق ، ووظيفاً يدى الفرس : ما تحت ركبتيه إلى جنبيه ، ووظيفاً رجليه : ما بين كعبه إلى جنبيه . وعجر وظيفه أي سمن وتضخم . لسان العرب ، مادة وظف ج ٩ ص ٣٩٨ .
- (٤) الحبك : طرائق النجوم في السماء - وحبك السحاب : تكاثفه وثقله . مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ج ٣ ص ٢٨٨ مادة : الحبك . الهيئة المصرية للكتاب ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- (٥) الديوان ص ٣١١ .

وينتقل الشاعر إلى وصف بقية أجزاء الفرس ، ويبدو أنه أعجب به أيما إعجاب ؛ لذا نراه لا يغادر جزءاً من أجزائه صغيراً كان أو كبيراً إلا وقف عنده ، وأبدى من خلاله إعجابه ؛ لذلك نقول : إن الشاعر قد انطلق في وصفه لهذا الفرس من خلال إحساس ومشاعر ولدها الإعجاب به ، وها هو ذا بعد أن وصف الفرس بالقوة والجمال ينتقل إلى أوصاف حسية ؛ فيتناول متنه ووجهه وأقدامه ويديه وذيله ، وإن كان قد أشار إلى بعض ذلك فيما تقدم يقول : -

وترى له ذنباً يهزُّ فضولَهُ ويجرُّهُنَّ كَرِيْطَةً ^(١) المتغزَّلِ
 في حُسْنِ عُرْفٍ قد تكامل نَبْتُهُ جَعِدٌ ^(٢) كحاشية الرداء المسبَلِ
 وكأنما مبيضٌ أعلى وجهه وجبينه ضوءُ الصباحِ المقبَلِ
 أمضى إذا أرسلته في حلبة من قول لا ومن التفاتةٍ مُعْجَلِ
 وكان دَفَّةً سَرَجِهِ ولجامِهِ شدًّا على ظهرِ السَّمَاكِ الأَعزَلِ ^(٣)

ولهذا الفرس ذيل طويل جميل يجره ؛ وهو بذلك يشبه الثوب الرقيق الناعم ، أو الملاءة التي ليس لها خيط يجمعها ، إن الشعر النابت في عنقه يزيده جمالاً ، ويضفي على حسنه حسناً ، وهو لطوله وتجده يشبه طرف الرداء المسبَل أو المجرور خلف صاحبه ، إن أعلى وجهه أبيض ، وكذلك جبينه فهو يشبه ضوء الصباح المشرق ، ويزداد إعجاب الشاعر بهذا الفرس فترى صورة مبتكرة حيناً يقول : إنك إذا أرسلته وأطلقت له العنان كان عدوه وسرعته أشد من لفظة " لا " التي تخرج من صاحبها في أقل من طرفة عين ، وليس ذلك فحسب بل إن سرعته

(١) رِيْطَةٌ : كل ملاءة غير ذات لفقين كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، أو الثوب اللين الرقيق - القاموس ج ٢ ص ٣٥٩ مادة : رِيْطَةٌ .

(٢) الجعد : خلاف السبط أو القصير منه - المعجد : الغليظ - ويعبر جعد : كثير الوبر - الفيروز أبادي القاموس ج ١ ص ٢٨١ مادة جعد .

(٣) الديوان ص ٣١١ ، ٣١٢ .

أشد من نظرة المتعجل ، الذي لا يتوقف عند المنظور إليه ولا يتمهل فهي لمحمة خاطفة ، وممضة سريعة ، وتتوالى أوصاف الفرس ، معتمدة على قدرة الشاعر على التصوير الذي كان التشبيه هو العماد الذي ارتكزت عليه الصورة عنده ، ومعلوم أن شاعرنا مقرون " بابن المعتز " وغيره من المعروفين بحب التشبيه ، وإبداعهم فيه ، وقد جاءت الاستعارة معضدة للتشبيه ومؤازرة له ؛ فتسهم بذلك في إكمال الصورة ، وإبراز معالمها ، وفي استعارته رأينا الجديد المبتكر ، ظهر ذلك حين يقول عن الفرس أنه قد أخذ حسنه من الغواني الجميلات بل سلب حسنه فأخذه طراً :

سَلَبَ الْغَوَانِي حَسَنَهُنَّ فَجَاءَ فِي أَبْهَى مِنَ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ وَأَجْمَلِ^(١)

وفي التعبير بقوله : سلب يشير إلى أن هذا الفرس قد أخذ كل المحاسن من أصحابها ، ولم يبق لهن شيئاً ، والتشبيه والاستعارة وغيرها من ألوان البيان والبدیع ، بالإضافة إلى الموسيقى الصافية التي جاءت من استخدامه للبحر ذي التفعيلة الواحدة المتكررة وهو بحر الكامل متفاعلن - متفاعلن - متفاعلن في كل شطر - كل ذلك يشير إلى تدفق إحساس الشاعر وصدق شعوره وكمال إعجابه بهذا الفرس ، ومن ثم صفت نفسه ؛ فصفت تجربته فاكتملت قصيدته .

وإذا كانت المشاعر والأحاسيس الخاصة مما يؤثر في القصيدة ، وينطبع فيها ، ويلقي بظلاله عليها ؛ فإننا كما رأينا الشعور المتدفق والإحساس الملتهب قد انعكس على قصائد الشاعر ، فزاد في قوتها ، وارتفعت حرارة العاطفة فيها وقد برز ذلك من خلال الصورة واللفظ والموسيقا .

وكما رأينا ذلك كله رأينا الشعور البارد والإحساس العادي وقد انعكس على القصيدة أيضاً ؛ فتولد عن ذلك ضعف العاطفة ، وبدا في النص تلك الألفاظ ذات الدلالات المحدودة والتراكيب المقررة التي لا تضيف كثيراً إلى فكر السامع ، ولا

تتصل بإحساسه وقلبه ومن ذلك ما رأيناه في بعض مقدماته الغزلية والتي بدأ لنا من قراءتها أن الشاعر إنما جاء بها لاستكمال شكل فني درج عليه ، ومن هنا يشعر القارئ ببرودة العاطفة وضعف الإحساس ؛ وكأن القصيدة حينئذ هي مجموعة من الكلمات، قد أجاد الشاعر رصها وتركيبها لكنه لم يصبغها بإحساسه، ولم يخلع عليها من مشاعره يقول في مقدمة قصيدة مدح بها أخاه " العزيز " :

جاريةً مرهفةً القَدَّ ظالمةً مظلومةً الخَدَّ

كالقمر الطالع لكنّها في حسنها كالرَّشَاءِ^(١) الفَرْدِ

في ليلها البدرُ وفي دِعْصِهَا^(٢) غصنٌ به رُمَانَتَانِ نَهْدِ

تَبَسُّمٌ عن بَرَقٍ وعن لؤلؤ مُنَظَّمٌ أحلى من الشَّهَدِ^(٣)

يشبهاها في جمالها بالقمر ، وفي حسنها بالظبي ، كما يشبهاها بالبدر ويشبه أسنانها باللؤلؤ وريقها بالشهد - صور مكررة تعارف عليها الشعراء ، وألفتها آذان السامعين لا نرى فيها جديداً ، ولا يبدو من خلالها إبداع " تميم " الذي ظالماً بدأ لنا وخاصة في الغزل من شعره .

وليست الصور وحدها التي تعلن عن ضعف التجربة فالألفاظ المكررة والمضامين المعروفة كلها تشي برغبة الشاعر في صناعة شعر رأى نفسه ملزماً به لا بإبداع نص يعبر عن مشاعره ويعلن عن إحساسه ، وما رأيناه في مقدمة القصيدة ينطبق تماماً على ما جاء في عرضها الرئيس وهو مدح " العزيز بالله " ، وفيه لا تشعر بحرارة العاطفة وصدق الإحساس ، وكأن الشاعر قد اضطر إلى

(١) الرشأ : الظبي إذا قوي وتحرك ومشى مع أمه ، والجمع أرشاء . لسان العرب ج ١ ص ٨٦ مادة رشأ .

(٢) دعصها : بالكسر قطعة من الرمل مستديرة ، أو الكثيب منه المجتمع ، أو الصغير - القاموس ج ٢ ص ٣٠١ مادة دعص .

(٣) الديوان ص ١٠٠ .

نظم تلك الأشعار في وقت لم يكن الصفاء والألفة والمشاعر المتقدمة هي الروابط التي تصله بـ " العزيز " وفي قراءتنا لحياة الشاعر رأينا من الفترات ما كانت فيها العاطفة قد أصابها الفتور ، وربما التوتر لأسباب عرضنا لها والقصيدة كما ذكرنا تبدأ على هذا النحو :

كأَنا راحَتُه مُزَنَّة^(١) تَبْدَأُ بِلا بَرَقٍ ولا رعد
 كأَنا في الحزم آراؤه مشنقة من قُضْب الهنـد
 المُلْك ذو عِقْدٍ ولكِنَّه في عصره واسطة العِقْد
 ما السيف أمضى منه في عزمه في غِمدِه إذ سُلَّ من غِمد^(٢)

وما قلناه في مقدمة القصيدة ينطبق على موضوعها الرئيس ؛ فالقصيدة نتاج شعور واحد ، وصدى لتجربة واحدة ؛ لذا لم يختلف الغزل فيها عن المدح . فها نحن أولاء نراه يشبه راحة " العزيز " بالمزنة التي تمطر بلا برق ولا رعد ؛ فكلها نفع وفوائد ، ويشبه آراءه الحازمة بأشياء اشتقت من القضيب الهندي ، إنه زينة الملوك ، وواسطة عقدهم ، وأمضى من السيف ، وأشد منه قوة ، معاني مكررة وتشبيهات طالما ردها شعراء العرب السابقون ، وحتى الألفاظ لا تجد فيها من الدلالات المشعة ما قد يعوض النقص الملحوظ في المعاني والصور .

ولسنا في حاجة إلى القول بأن مرد ذلك إلى ضعف التجربة ، وبرود العاطفة الذي غالباً ما نراه في شعر المناسبات ، والذي يرى بعض النقاد أنه يخلو من التجربة ؛ إذ هو - فيما يرون - مصطنع متكلف لا ينبع من شعور صادق ولا ينطلق من إحساس حقيقي (ولذلك حاربت المدارس الجديدة في الشعر العربي شعر المناسبات ؛ لأنه غالباً لا يكون تعبيراً عن أعماق نفس الشاعر، ولا صدَى

(١) المزن : السحاب عامة ، وقيل السحاب ذو الماء ، واحدته مزنة . لسان العرب

ج ١٣ ص ٤٠٦ مادة مزن .

(٢) الديوان ص ١٠١ .

لانفعال عميق بفكرة القصيدة .

وإذا كانت أغلب قصائد الشعر العربي القديم قد قيلت في مناسبات طارئة ؛ فإن معنى ذلك أن جملة الشعر العربي يبعد عن ذات الشاعر ووجدانه ، وعن أعماق نفسه ، وإذا كنا نحكم بهذا المقياس فإننا نكون مخطئين غاية الخطأ ؛ فإن الشعراء الذين يتحدثون عن مناسبة يتفاوتون ، فهناك شاعر يترك المناسبة نفسها ؛ ليتحدث في أعماق نفس الموضوع وانفعاله به كمرثية المعري في الفقيه الحنفي ، وقصيدة البحري في إيوان كسرى ، مثلاً ، فالشاعران كلاهما قد تجاوز المناسبة إلى صميم الموضوع وعبرا عن انفعالهما به ، وهناك شعراء يقفون عند حد المناسبة ذاتها ، لا يعبرون في قصائدهم عن انفعال ، ولا يصدرون عن عاطفة قوية ، فذلك الشعر هو المعيب في حد ذاته ، لأن الشاعر لم يعبر عن ذاته ووجدانه وانفعاله بموضوع القصيدة تعبيراً قوياً مؤثراً^(١) .

وفي الحق إن في شعر " تميم " من هذا النوع ما يؤكد تلك النظرية ؛ فقد رأيناه أحياناً يأتي بشعر دعت إليه ظروف خاصة ، أو دفعته لقوله مناسبات ملحة ، ومعظم هذا النوع من الشعر رأيناه في مدحه لأبيه أو لأخيه الخليفة ، على أنه من الحق أن يقال إن جل مدحه لأخيه لم يكن من هذا النوع المعروف بشعر المناسبات ، البعيد عن صدق التجربة وحرارة العاطفة ، بل إننا لمسنا في أكثر مدائحه له صدقاً ؛ سيطر على مشاعره ، وحياة نابضة تجلت في إبداعه ، وهذا ما يشير إلى أن شعر المناسبات ليس خالياً من التجربة بالضرورة ، بل إن منه ما يشعر فيه القارئ بصدق الإحساس وتوهج المشاعر وعميق التجربة . وفي شعر " تميم " رأينا شعر المناسبات وقد أخذ هذين الشكلين فمن الشكل الأول الذي يبعد فيه الشاعر عن سيطرة التجربة على روحه وامتلاكها لكياته ما رأيناه في مدحه

(١) د / محمد عبد المنعم خفاجي : النقد العربي الحديث ومذاهبه ص ٨٣ ، مكتبة الكليات

لأخيه " العزيز " وهو يتناول دواءً يقول : -

لستُ أدري منَ المَعْلَى المَهَنَّا منكما بالشفاء والنعماءِ
أَهْنِيكَ يا شقيقَ المعالي أم أهني بك اتخاذاً الدواء
بشركَ السعودُ بالنصر والعزْ زِ وجاءتك بالعلأ والبقاء
إنما أنتَ حجةُ الله لاحت في البرايا ووارثُ الأنبياء
فابقَ ما شئتَ في نموٍّ من المُلِّ ك على رَغَمِ آنفِ الأعداء^(١)

إنه لا يدري ما إذا كان الدواء أم " العزيز " هو الجدير بالعلو والتهنئة، إنه لا يعرف أيهما يهنئ الدواء بشرب " العزيز " له ، إن طالعه طالع سعد يبشر بالعزة والنصر والعلأ والبقاء ، ثم يقول له : إنك حجة الله ووارث الأنبياء ، ويدعو له بعد ذلك بالبقاء رغم أنوف الأعداء ، وهذا البقاء رهن بمشيئة الممدوح ؛ فهو حق إلهي له فابق ما شئت .

إنها معاني مكررة تقليدية ، تخلو من الجدة والابتكار ، وقد كستها ألفاظ ضعيفة وتراكيب ؛ لا تبدو عليها مظاهر القوة .

إذن فنحن أمام نص جاف ، لا تشعر بدبيب الحياة في جنباته ، وما كان ذلك إلا نتيجة لبعد النص ومبدعه عن التجربة المعاشة والمشاعر المتدفقة ، ولسنا نجد لذلك تفسيراً إلا أن الشاعر قد وجد نفسه في آتون ظروف دافعة ، ومناسبة ملحة ، فرضت عليه الشعر فرضاً فما كان إلا أن جري على لسانه شعر ليس فيه حياة ولا روح ، فهو أقرب إلى النظم منه إلى الشعر .

وترتبط التجربة في شعر " تميم " بالعاطفة ارتباطاً وثيقاً ؛ فتقوى بقوتها ، وتضعف لضعفها ، وليس ذلك فحسب بل إن التجربة لتتنوع بتنوع العاطفة ، فـ "تميم" يوائم بين تجربته وعاطفته، فنرى عنده تنوع التجربة واختلافها ، وقد

ارتبط بالتنوع والاختلاف في العاطفة ، وذلك في شعره عموماً ، بل في القصيدة الواحدة، وهذا ما يؤكد قدرة الشاعر على صياغة تجربته، والتعبير عن عاطفته ، ووضعها في ثوب شعري ملائم ، ولعل أصدق مثال لذلك ما رأيناه في قصيدته التي عبر فيها عن تجربة ؛ فحواها أنه قد أخذ فرساً من أخيه الخليفة ، وسار به إلى بستانه حيث مجلس اللهو والخمر والغناء ، وحيث غمرتهم النشوة ، وساد بينهم الصفاء ، وانتابت الشاعر حالة من البهجة والسرور ؛ فعبر عن ذلك بقوله :

ويومٍ من الأيام غابت عواذله سقانا به طلُّ السرورِ ووابله
صفتُ مثلَ صفوِ الخمرِ بالماءِ بيننا وأخره حُسناً وطابتْ أوائله
فلما تعاطينا المُدامَ وأومضتْ بُروقُ الصبا فينا وسلتْ مَاصِلَه
دهننا صروفُ الدهرِ بالفرسِ الذي مضى أبقاً واسترجعَ اللهُوَ بأذله^(١)

ويصحو الشاعر من سكره ، وينتبه من غفلته ؛ فإذا الفرس الذي استعاره من أخيه قد ضاع ، وظل الحراس يبحثون عنه طول الليل ؛ فتنتاب الشاعر حالة من الحزن والقلق ، وربما الخوف والاضطراب وهنا يختلف التعبير الشعري عند الشاعر باختلاف عاطفته فهو يقول : -

وبتنا على سُكْرَيْنِ مِنْ سُكْرِ قَهْوَةٍ وسكرٍ من الخطبِ الذي جَلَّ نازلُه
فيا لكِ يوماً طابَ صبْحاً وُغدوةً وجاءتْ بأضدادِ السُرورِ أصائله^(٢)
فبتنا كما لا نشتهي وقلوبنا رهائنُ فِكْرِ يُحْرِقُ الجمرَ داخله^(٣)

وواضح ما بين الحالتين الشعوريتين اللتين عاشهما الشاعر من فرق كبير،

(١) الديوان ص ٣٣٦ .

(٢) الأصائل : جمع الأصيل ، وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب ، قال ابن سيده : الأصيل

والعشي سواء لا فائدة في أحدهما إلا ما في الآخر ، لسان العرب مادة [أ ص ل] .

(٣) الديوان ص ٣٣٧ .

تبرزه الصورة واللفظ والجرس الموسيقي ، فانظر معي إلى تلك الصور الواردة في الحالة الأولى ، حالة السكر والصفاء والسرور والهناء ، فالسرور عنده شراب عذب يسقاه الشاعر " سقانا به ظل السرور ووابله "

وفي تعبيره بـ (ظل السرور ووابله) ما يوحي بغزارة ما انتاب عليهم من فرح ، وما غمرهم من صفاء ، هذا بالإضافة إلى ما في التعبير من جدة وابتكار ، ويأتي التشبيه ليعضد الاستعارة ؛ فنراه يشبه صفاء يومه في أوله بصفاء الخمر الممتزجة بالماء الصافي ، وفي تعبيره تعاطينا المدام ما يشير إلى ازدياد المودة وقوة المحبة بين الأصحاب ؛ مما يضيف إلى صفاء الجو صفاءً آخر .

ثم انظر إلى الحالة الأخرى حالة القلق والاضطراب وانظر إلى ما حملته من صور وألفاظ وتراكيب تشي بتجربة الشاعر ، وتعبّر عن عاطفته ففي قوله : دهتنا صروف الدهر صورة تشخيصية ؛ فقد جعل من الصروف والخطوب إنساناً يوجه ضرباته إلى خصمه ، وفي قوله " سكر من الخطب " ما يوحي بشدته ، وما يعبر عن عظم المصيبة التي منى بها الشاعر، لقد أسكره الخطب فذهل عن الدنيا، وتاه عن كل شيء ، وفي قوله : " جاءت بأضداد السرور أصائله " استعارة تبرز آخر النهار وكأنه إنسان قد حمل الحزن بين يديه ليقدمه للشاعر ، وفي تعبيره بـ (أضداد السرور) ما يشير إلى دقة الشاعر في اختيار اللفظ ، فلم يرد أن يعبر بالأحزان، وكأنه يأمل في أن تنزاح تلك الغمة وتزول هذه البلوى، على الرغم من تجمع الأحزان وثقلها، وهو ما يشير إليه لفظ الجمع " أضداد " ، وتنفرج الأزمة بمجيء من يبشره بعثورهم على الفرس ، والوقوع عليه فيعود الشاعر إلى حالته الأولى من سرور وغبطة وفرح :

فَلَمَّا بَدَأَ وَجْهَ الصَّبَاحِ تَكَرَّرَ عَلَى وَفْدِ الظَّلَامِ قِتَابِهِ (١)

أَتَيْنَا بِهِ البُشْرَى فَرَوَّحَ مُكْمَدًا وَأَنْهَلَ صَادِباتِ حَبِّ يُوَاصِلِهِ (٢)

(١) القبايل: جمع قبيلة الطائفة من الناس ومن الخيل - القاموس ج ٤ ص ٤١ مادة (قتبل).

(٢) الديوان ص ٣٣٧ .

والشاعر موفق كل التوفيق حين قرن مجيء البشري بإقبال الصباح ، وبينهما ما بينهما من التناسب وهو ما يتوافق مع الحالة النفسية واللحظة الشعورية التي عاشها الشاعر مما كان له أكبر الأثر في تمام الصورة وإكمالها .

وهكذا عبر الشاعر عن تجربته بصدق ، واستطاع تصوير ما في نفسه تصويراً ينبع من العاطفة التي اختلفت من فرح إلى حزن ، ثم إلى فرح وسرور مرة أخرى ، والشاعر في ذلك كله يتجه إلى قارئه أو سامعه ؛ بتصويره للحالة النفسية تصويراً يلبس ثياباً من العبارة الجيدة والأسلوب الرصين ، وما كان الشاعر لتتوفر لديه هذه القدرة على التعبير عن التجربة والإفصاح بالأسلوب المناسب إلا لتواجد العاطفة بصورة قوية ومؤثرة ، فالعاطفة هي (لب الفنون وعمادها ، وهي المعزف الذي تصدح به أوتار الأدب ، وعليه يعزف الأديب ، وهي الشرفة التي يطل منها على ما تنطوي عليه النفوس من ألم وأمل ، والمنفذ الذي يصل منه إلى القلوب)^(١) ولما كان ارتباط التجربة بالعاطفة ارتباطاً وثيقاً رأينا عند الشاعر تعدد التجربة في القصيدة الواحدة تبعاً لاختلاف الحالة الشعورية التي عليها المبدع أو قل تبعاً لاختلاف درجة العاطفة وتعدد مستوياتها وازدواج التجربة رأينا عند " تميم " في قصائد متعددة ولكنه يبدو أكثر وضوحاً في قصيدة يفتخر فيها بنفسه غير أنه يقدم لها بمقدمة غزلية وفيها تبدو حرارة العاطفة وصدق التجربة تعلن عن ذلك ألفاظ موحية وصور معبرة ولكنه ما يلبث أن ينتقل إلى الفخر بنفسه وهنا تبدو التجربة هادئة بل تكاد تختفي بين ألفاظ مباشرة وعبارات مألوفة ، ولا نكاد نرى للخيال أثره الواضح الذي يرتفع بالشعر عن حيز الكلام العادي المنشور .

ونعائين عاطفة الشاعر الحرّة وشعوره المتدفق في مقدمته الغزلية

(١) د / عبد الحميد حسن - الأصول الفنية للأدب ص ٦٤ ، ٦٥ مكتبة الأنجلو المصرية

حين يقول :

ك في الليل بلا فجر	ولاح الفجرُ من وجه
عن التشبيه بالخمِر	وفي خديك مارقاً
ن حتّى سَمَكَ البحر	وأفأظك قد عطّر
ك حتّى رُحِتْ لا أدري	وأضننتني ألحاظ
ك أم كُحِّلٌ من السِحْر ^(١)	أسُقَمٌ بين أجفان

ألفاظ رقيقة وعبارات سهلة متدفقة تشعر بإنسيالها على لسان الشاعر إنسيالاً ، وانسيابها من لدنه انسياباً ، وصور على قربها تؤثر وتثير وتجذب السامع ؛ فيشعر معها بشعور الشاعر وإحساسه أنه سعيد مسرور محب كلف بحبيبه ، تنبئ عن ذلك ألفاظه " الفجر - الخمر - عطرن - كحل - سحر " إلى غير ذلك من الألفاظ المشعة الموحية ، ثم انظر إلى صورته الأخاذة " لاح الفجر ، وألفاظه : " قد عطرن وأضننتني ألحاظك " وغير ذلك من الصور التي لم تكن جديدة إلا أنها في سياقها جاءت معبرة عن الموقف ، ومجسدة لحالة الشاعر ، ومشيرة في وضوح إلى عاطفته المتقدمة ثم انظر في الجانب الآخر تراه يقول : -

م والمعروف بالخبر	أنا المرثى بالأفها
ل والمنعوت في الشعر	أنا المسموع بالإفضا
أنا المستحسن الأثر	أنا المستحمد الأمر
غ بالفخر مدى الفخر	أنا المفتخر البال
أنا الغيث الذي يقري	أنا السيف الذي يقري
أنا البدر الذي يسري ^(٢)	أنا الصبح أنا الشمس

(١) الديوان ص ١٧٣ .

(٢) الديوان ص ١٧٤ .

ولا أظننا نحتاج إلى دليل على جفاف اللفظ وثقل العبارة وقلّة الإبداع في الصورة ، فهي كما ترى صور مكررة مألوفة ليس فيها جديد ، فها هو ذا يشبه نفسه بأشياء طالما استعملها السابقون: " أنا السيف - أنا الغيث - أنا الصبح - أنا الشمس - أنا البدر " إنها تشبيهات عامة قد تنطبق عليه كما تنطبق على غيره ومن ثم لا تبعث فينا ما يثير مشاعرنا ويلهب إحساسنا ويوجه نظرنا نحو صاحبها وعلى هذا النحو يبدو ازدواج التجربة واضحاً في القصيدة التي يمدح فيها أخاه " العزيز " ، ففي مقدمتها والتي جاءت أطول من القصيدة نفسها - تبدو العاطفة صادقة صدق التجربة ؛ فهي لا تكاد تنفصل عنها ، ويستطيع الباحث إدراك ذلك من خلال ألفاظ موحية ، وصور معبرة وخيال ملحق ، وهذا ما اختفى تماماً في الجزء الثاني أعني الغرض الرئيس للقصيدة والتي تبدأ بالحديث عن الأطلال الدارسة والآثار التي عفي عليها الزمن يقول : -

رَبْعٌ لَأَسْمَاءَ بَرْبَعِ دَارِ	بَيْنَ نَقَا الصَّمَانِ (١) فَالضِمَارِ (٢)
تَأَبَّدَتْ إِلاَّ مِنَ الْإِقْفَارِ	وَمِنْ شَجِيحٍ (٣) فِي الثَّرَى مَوَّارِ
وَشَطْرُ نُؤْيٍ دَارِسِ الْآثَارِ	كَأَنَّهُ مَقْسَمِ السَّوَارِ
أَخْنَى عَلَيْهَا كُلُّ غَادٍ سَارِ	دَانِي الرَّبَابِ شَاسِعِ الْأَقْطَارِ
وَهِيَ الْكُلَى مَفْتَقِ الْأَزْرَارِ (٤)	كَأَنَّ لَمَعَ بَرَقِهِ الْمُثَارِ

- (١) الصمان : موضع لبني حنظلة ، أو هي ناحية من نواحي الشام بظاهر البلقاء ، وقد ذكرها الشاعر محاكاة للشعراء الأقدمين . ينظر : الديوان ص ١٧٥ هامش ٤ .
- (٢) الضمار : وادٍ منخفض يضم السائر فيه ، وهو أيضاً موضع بين نجد واليمامة . ينظر : الديوان ص ١٧٥ هامش ٤ .
- (٣) الشجيج : الوتد لشيوعه صفة غالبية عليه ، ووتد مشجوج وشجيج ومشجج شدد لكثرة ذلك فيه . لسان العرب ، مادة [ش ج ج] .
- (٤) الزر : البقل والأرض لا نبت فيها . الفيروزآبادي : القاموس (ز ر ر)

- يفتر عن مثل أوار النار أو منتض سيفاً من النضار^(١)
أو لاعب في الأفق بالشرار يكاد أن يذهب بالأبصار^(٢)

على عادة شعراء العرب الأقدمين يقدم الشاعر لقصيدته بمقدمة طولية يتناول فيها ديار الحبيب وأطلالها الدارسة ، واصفاً المكان وصفاً دقيقاً مستعينا في ذلك بالتشبيه والاستعارة والافتباس وغيرها ، وعلى عادة العرب أيضاً يرمز الشاعر لمحبوبة باسم طالما تداوله الشعراء القدماء فيعرفنا أنها أسماء ويحدد مكان دارها، فهي بين نفا الصمان فالضمار، والصمان من نواحي الشام بظاهر البلقاء ، والضمار وادٍ منخفض يضم السائر فيه ، وهو أيضاً موضع بين نجد واليمامة ، وإذا كان الشاعر لم يقم في هذه الأماكن ، وربما لم يعاينها فإننا نعتقد أنه ما ذكر تلك الأماكن إلا محاكاة للشعراء الأقدمين ، وهذه الأماكن قفرة تخلو من مظاهر العمران ؛ فلا يبدو فيها إلا الوحش الضاري ، ولا يبدو منها إلا أوتاد تتردد بين الظهور والخفاء ، وكأنها من آثار خيام تركها أهلها الطاعنون .

وتلك الأماكن قد غادرها السحاب ، فلا ينزل فيها مطر؛ فهي قفر جرداء ؛ لذلك يبدو نباتها ضعيفا منقطع الأزرار ، وهذا النبات يبدو ملتهباً لشدة الحر، فهو مثل أوار النار ، أو يشبه حامل سيف من النضار، أو هو كلاعب بالشرار في الأفق ؛ لذلك يجذب الناظر إليه ، فهو يكاد يذهب بالأبصار . وهذا الافتباس الأخير يسهم في إبراز رؤية الشاعر لهذه الأطلال فهو مأخوذ من قوله تعالى { يَكَادُ سَنَا بَرِّقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ }^(٣) وتوالي التشبيهات فيما سبق من مثل قوله (كأنه مقسم السوار - كأن لمع برقه المثار - مثل أوار النار - أو منتض سيفاً من النضار -

(١) النضار : الذهب أو الفضة ، والنضار بالضم الجواهر الخالص من التبر ، والناضر

الشديد الخضرة . الفيروزآبادي : القاموس المحيط (ن ض ر) .

(٢) الديوان ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) سورة النور : من الآية [٤٣] .

أو لآعب في الأفقُ) كل هذا يؤكد حرص الشاعر على توضيح صور تمثلت في خاطره ، فأراد أن نتمثلها ، وأن تنطبع في أذهاننا لينقل من خلالها مشاعره التي تولدت في خاطره ، ويبثها في أعماقنا .

وينتقل الشاعر إلى وصف ليلة عاشها بين الطبيعة الساحرة ، والصحب المخلصين ، والخمر الطيبة المذاق .

حتى إذا أرخى على النهار هَيْدَبَةٌ لَيْلًا بِلَا انفجارِ
وكحلَّ الجوّ بمثل القار وقام فيه الرعد كالمزمار
غنّت له الريح بلا أوتارِ ما ظلّ في رفع وفي انحدارِ^(١)

ويتغير المشهد لنرى الطبيعة الساحرة ، والجو الصافي ، والأرض التي كستها الخضرة يصورها الشاعر مستخدماً الصورة بكل أشكالها مستعيناً بالألوان التي هي أنسب ما يكون لإبراز مراده .

ونمّت الأرضُ على الأمطار بما اكتست من بدع النورِ
من أحمرٍ قانٍ على اخضرارِ وأبيضٍ قد لاح في اصفرارِ
كدرهم ركب في دينار وقد بدا السوسنُ في البهارِ^(٢)
إن الصبأ أحرى من الوقار فاغدُ عليه خالع العذارِ
وصاحبٍ مهذبٍ مختارِ ليس بفضّاح ولا غدارِ
ولا على ندمانه بزار نادمتُه في ليلة مقمارِ
قبل اتّضح الصبح والإسفار والطيرُ ما هبّت من الأوكارِ
والنجمُ وسَطَ الفلكِ الدوّارِ يأمرُ جيشَ الليل بالفرارِ

(١) الديوان ص ١٧٦ .

(٢) الديوان ص ١٧٦ .

فهايتها من كَفَّ ذِي احورارِ ساجي^(١) الجفونِ قاتئِ الأظفار^(٢)

وما زال " تميم " يستخدم التصوير وسيلة لإبراز مشاعره ؛ فالمجاز المرسل في قوله " نمت الأرض " ، والاستعارة في قوله " اكتست " ، بالإضافة إلى الألوان التي استكملت أبعاد الصورة ، وهي الأحمر القاني ، ويعني به الورد الذي بدا فوق الأرض المخضرة المعشبة ، ثم الأبيض الذي لاح في اصفرار ، ولعله يعني به زهر الفل أو الياسمين ، ويلتقط الشاعر بذهنه المتوقد تشبيهاً من تلك الصورة ، فهذا الأبيض في اصفرار إنما يشبه درهم ركب في دينار ، ثم انظر إلى السوسن ، وهو زهر جميل ؛ وقد اختلط بالبهار ذلك النبات الطيب الرائحة ، كل ذلك يخلق جواً من الصفاء وحالة من المتعة ، تقدم لما سيقدم عليه الشاعر من معاقرة الخمر ومنادمة الأصحاب .

وكأنى بالشاعر قد أراد أن ينسى ما أصابه من حزن على فراق الأحباب في أول القصيدة ؛ لذا تراه يدعو إلى الإقبال على المذات ، والأخذ من متع الحياة فالتهتك عنده أولى من الوقار ؛ إذا كان مع صاحب مهذب مختار غير فضاح ولا غدار ، ويلتفت إلى صاحبه يطلب منه أن يسعى في طلب الخمر ، ويحضرها في يد ساق أحور العينين ، وقد كان هذا في ليلة مقمرة قبل أن يبدو الصبح ، والطير ما زالت في أوكارها لم تستيقظ بعد ، والنجم يطارد سواد الليل ، والشاعر هنا يستخدم الزمن بوصفه إطاراً للحدث فيعينه ذلك على إبراز تجربته وتأكيد صدقها. ولسنا في حاجة إلى إبراز ما استخدمه الشاعر من وسائل الصورة والموسيقى ، واللفظ السهل المعبر ، والجمل المتساوقة والتي تتصافر على إبراز مشاعر الشاعر ، وتشكيل تجربته وتأكيد صدقها .

(١) سجي الشيء : سكن ودام ، وسجّاه : غطاه ، وساجي الجفون : مسبلها .

القاموس (س ج ا) .

(٢) الديوان ص ١٧٧ .

وهذه المقدمة الطويلة التي اجتزأنا منها أبياتاً تشير إلى أن المشاعر هي الرافد الرئيس لتجربة الشاعر في هذه القصيدة هذا الطول المفرط بالقياس إلى قلة الأبيات التي خصصها الشاعر لغرضه الرئيسي وهو مدح " العزيز " - إنما يؤكد أن " تميم " قد انفعَل بتجربته الذاتية ، وشعوره الخاص ، أما غرضه الرئيسي فما هو إلا شعر قيل في مناسبة ، أو دعت إليه ضرورة ونستطيع أن ندرك ذلك من خلال نموذج قصير نعرضه ، ففي مدحه لأخيه في هذه القصيدة يقول :

نحو الإمام المصطفى نزار	من فضل الأملك في النجار ^(١)
فضل ضياء الشمس للأقمار	وقام للملك بكل ثار
ولم يزل قرماً ^(٢) منيع الجار	عذب السجايا حامي الذمار
دانته له الشؤس ^(٣) من الأعصار	كأنما يضرب بالمقدار
يا بن الهداة السادة الأبرار	الأوصياء القادة الأطهار ^(٤)

ولعلك تلاحظ معي تلك العاطفة الباردة التي تعلن عنها صور مألوفة مكررة ، وألفاظ تكاد تقترب من ألفاظ العامة ؛ فهي غير موحية ولا مشعة ولا تحمل شحنة عاطفية تسهم في ثراء التجربة ، وتعلن عن صدقها ، هذا بالإضافة إلى مضامين ليس فيها ما يثير الإحساس ، أو يحرك الشعور، فهي مكررة متداولة ، تخلو من الخيال المحلق والتعبير الموحى ، فأين ذلك مما ذكرناه في مقدمة القصيدة من

(١) النجار : الأصل . القاموس مادة (ن ج ر) .

(٢) قرم : السيد المعظم وبالفتح الفحل القاموس ج ٤ ص ١٦٠ مادة القرم .

(٣) الشؤس : جمع الأشؤس - الأشؤس : الجريء على القتال الشديد ، والأشؤس

الرافع الرأس تكبراً والشؤس بالتحريك : النظر بمؤخر العين تكبراً أو تغيظاً .

اللسان ، مادة [ش و س] .

(٤) الديوان ص ١٧٩ .

صور وأخيلة ، وكلمات وعبارات حملت بين جنباتها مشاعر الشاعر ، وبعثت في القصيدة نبض الحياة ، وهذا كله يؤكد أن مشاعر الشاعر هي التي ترتفع بمضمون القصيدة ، وتشكل المصدر الرئيسي للتجربة عند الشعراء عموماً ، وعند " تميم " خصوصاً .

ومن هنا يمكن القول أن المضامين الشعرية تسمو بسمو التجربة ، وتضعف بضعفها ، فيرتفع مستوى المعنى غالباً بانفعال الشاعر بالتجربة ، وسريانها في خاطره ، ودبيب حمياها في نفسه ذلك أن الشعر ما يزال خاطراً (يجيش في صدر الشاعر حتى يجد مخرجاً ، ويصيب متنفساً ، أي يتحول من رؤية مستبطنة إلى موقف ذي معالم ، وله كيان ينمو بمقدار نمو الرؤية وانكشافها لدى الشاعر)^(١) فإذا نمت رؤية الشاعر ونضجت ، وتكشفت أمامه ؛ أمكننا أن نرى ذلك الشاعر ، وقد أفرز في شعره مجموعة من الأفكار والمضامين الجديدة والمبتكرة وهذا ما رأيناه واضحاً حين صور تميم مشاعره وأحاسيسه تجاه محبوبه ، وهي أحاسيس ومشاعر تبدو صادقة لم يتكلفها الشاعر ، ولم يغال في إظهارها ، تعلن عن ذلك صورته وألفاظه ، ثم تأتي المضامين وقد تأثرت بالتجربة فجاءت واضحة سامية ناضجة فيها هو يقول :

إن كنت مُتْهِمِتي بِغَدْرِكِ فَاسْأَلِي	عَنِّي رُكُوبِي فِيكَ كُلَّ جَلِيلِ
وَفُتُورَ أَعْضَائِي وَنَارَ تَنْفُسِي	وَدُمُوعَ أَجْفَانِي وَطُولَ نُحُولِي
وَحُفُوقَ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِكِ هَيْبَةً	لَكَ وَاطْرَاحِي فِيكَ كُلَّ عَذُولِ
إِنِّي لِيَعْدُبُ لِي إِلَيْكَ تَذَلِّي	حُبًّا وَمَا أَنَا فِي الْوَرَى بِذَلِيلِ
وَأَرَى التَّهْتَكَّ فِي هَوَاكَ صَبَابَةً	وَأَرَى التَّجَمُّلَ فِيكَ غَيْرَ جَمِيلِ
سَوْءُ الْبَرِيَّةِ أَنْ تَفُوزَ بِلِحْظَةٍ	مَنِّي وَوَجْهَكَ أَنْتَ وَحَدَّكَ سَوْلِي

(١) د / محمد السعدي فرهود : قضايا النقد الأدبي الحديث ص ٩١ .

ولو استطعتُ خَبَاتُ شَخْصِكَ غَيْرَةً فِي مُهْجَتِي مَعَ زَفْرَتِي وَغَلِيلِي^(١)

أرأيت إلى تلك العبارات العذبة ، والألفاظ الرقيقة المناسبة للموقف ، والنغم المثير المتسق مع تلك المشاعر المتأججة والإحساس المتدفق ، ثم انظر إلى تلك الصور الأخاذة ، الناقلّة لإحساس الشاعر في يسرٍ ووضوح ، يقول : إن كنت قد توهمت حياتي لك فأسألي عني الصعاب التي تكلفتها ، والمعاناة التي عانيتها للوصول إليك، وقد أورتني حبك فتورأعضائي، واشتعال النار في صدري، وضعف جسمي، وكثرة دموعي، إنه يبدو - كما صور نفسه - متهاكاً ضعيفاً باكياً نحيلاً، أنك تذكريني فيخفق قلبي هيبه ، وحين يأتي عدالك يريدون الوشاية عندي أطرح كلامهم، بل لا ألقى لهم بالاً، واني استعذب التذلل فيك مع أنني كريم النفس والأهل ولست في الخلق بذليل ، إن البرية تخطب ودي ، وتريد أن تفوز بلحظة مني ، أما أنت فلست مثلهم إذ إن أقصى ما أتمنى هو أن أفوز بنظرة إلى محياك .

وهو وأن أدلى بنفسه في الشطر الأول إلا أنه تدارك ذلك في الشطر الثاني ، فجاء ذلك متفقاً مع ما يمليه موقف الحب والتغزل ، ولو أنني تمكنت من أن أخبوك في مهجتي لشدة غيرتي عليك لفعت ، مع أنني يستبد بي الشوق ، ومع ذلك فإن زفراي المحرقة ، وأنفاسي الملتهبة لا تصيبك بأذى ، فقلبي هو الذي يكفل لك الحماية .

ولعل أشد ما يلفت النظر في هذه المقطوعة هو تلك المعاني ، وهذه المضامين الجديدة ، المثيرة للمشاعر ، المحركة للعواطف ، ولسنا نظن ذلك إلا صدى لتجربة واقعية عاشها الشاعر ، وانفعل بها فأخرجها في هذه المضامين ، مصحوبة بصور مشرقة، وكلمات معبرة، وموسيقى تهدد المشاعر والأحاسيس ، وتموج نفس الشاعر بأحاسيس وعواطف تغذيها تجربة واقعية صادقة ، فنراه وقد تحدث عن تجربة عاشها مع من أحب ، فهي إذن تجربة صادقة ، وألم عاشه

الشاعر في واقعه ، إلا أنه قد صدق في تصويره لمشاعره وأحاسيسه .
 إذن فنحن بإزاء تجربة تمثل فيها الصدق الفني ، وهو صدق المشاعر
 والإحساس ، ولكن يعلن الشاعر عن هذا الصدق باستخدام عدد من الوسائل
 كان أبرزها القسم ؛ الذي يؤكد من خلاله صدق حديثه ، وهو لا يستخدم أي
 قسم ، بل هو قسم يرتبط بعقيدته ؛ التي بدورها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشاعره
 وإحساسه يقول : -

لا والمُضَرَّجُ ثَوْبُهُ في كَرِبَلَاءَ من الدَّمَاءِ
 لا والوَصِيُّ وَرَوْجُهُ وبَنِيهِ أصحاب الكِسَاءِ (١)

(١) حديث الكساء : قالت عائشة - رضي الله عنها - : " خرج النبي (ﷺ) غداة وعليه
 مرطٌ مرحل ، من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ، وجاء الحسين فدخل
 معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : " إنما يريد الله ليذهب
 عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً " . صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ،
 باب : فضائل أهل بيت النبي (ﷺ) ج ٤ ص ١٨٨٣ حديث رقم ٢٤٢٤ الناشر : دار
 إحياء التراث العربي بيروت .

حديث المواساة : " عن محمد بن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده قال كانت
 راية رسول الله (ﷺ) يوم أحد مع علي فذكر خبراً طويلاً فيه ، وحمل راية المشركين
 سبعة ، وقتلهم علي فقال جبرائيل يا محمد ما هذه المواساة فقال النبي (ﷺ) : " أنا
 منه وهو مني ، ثم سمعنا صائح من السماء يقول : لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا
 علي " . أخرجه ابن عدي في الكامل في معرفة ضعفاء محدثين وعلل الحديث
 لابن عدي ج ٦ ص ٤٥٧ تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ،
 الناشر : دار الكتب العلمية ط الأولى ١٩٩٧ م

وفي الإسناد عيسى بن مهران المستعطف قال ابن عدي : حدث بأحاديث موضوعه
 مناكير محترق في الرفض وذكره الذهبي في تلخيص كتاب الموضوعات ١٢٦ الناشر :
 مكتبة الرشد الرياض ، وميزان الاعتدال للذهبي ج ٣ ص ٣٢٤ الناشر : دار المعرفة
 ولسان الميزان لابن حجر ج ٤ ص ٤٠٦ الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات .

أولاً فإني للعُصا ة الغاصبين الأديعاء (١)

إنه يقسم بالحسين الذي قتل في كربلاء ، ولا يكتفي بذلك ، بل يقسم بالإمام علي وهو الوصي عندهم ، وبنيه وأصحاب الكساء جميعاً معتمداً في ذلك على نظرية شيعية تقول إن أصحاب الكساء هم " علي " وبنوه وزوجه " فاطمة " .
وبعد أن قدم الشاعر بقسم يؤكد صدق تجربته ، يلج إلى صميم التجربة ؛ ليرسم لنا الجو المحيط ويبرز ماغشيه ومحبويه من مشاعر طاغية وأحاسيس ملتهبة يقول :

ما حُتُّ يا ذاتُ (٢) اللَّمَى	عَمَّا عَهَدْتِ مِنَ الْوَفَاءِ
ها فانظريني سابحاً	في الدَّمْعِ مِنْ طَوْلِ الْبُكَاءِ
وضَعِي يَدَيْكَ عَلَى فُؤَا	خطأ! ارتبطا غير صالح.

لقد أقسم الشاعر لحبيبته أنه مازال على العهد، ومازال وفياً كما عرفه حبيبه، ومن ثم يطلب منها أن تنظر إلى حاله ، فهو يسبح في بحر من الدموع وفؤاده يكاد يحترق ، ومن ثم يطلب منها أن تضع يدها على ذلك الفؤاد ؛ إذ لا سبيل إلى وقايته من الفناء إلا ذلك ، وهنا يأتي رد المخاطب كي تتحقق الوسيلة الثانية من وسائل الشاعر في إبراز صدق تجربته ، وهي أسلوب الحوار وهو أسلوب يشير إلى واقعية الحدث ، ويؤكد صدق وقوعه فها هي ذي التي عشقها الشاعر تجيبه وتفند حديثه تقول :

قَالَتْ تَلَطَّفُ شَاعِرٍ	لَسِنْ وَخُدْعَةُ ذِي ذُكَاءِ
أَمْسِكْ عَلَيْكَ فَقَدْ تَقَنَّ	عَ مِنْكَ وَجْهِي بِالْحِيَاءِ

(١) الديوان ص ٢٥ .

(٢) اللَّمَى عَلَى [فُعْل] : جمع لمياء ، الشفاه السود ، واللّمى مقصور : سُمرة الشفتين واللمياء من الشفاة : اللطيفة القليلة الدم . اللسان ، مادة [ل م ي] .

واعْبَثَ بما في العِقْدِ مَنْ — ي لا بما تحت الرِّدَاءِ
 إِنَّ الرِّجَالَ إِذَا شَكَّوْا لَعِبُوا بِأَخْلَاقِ النِّسَاءِ (١)

إنها تشكك في صدق مشاعره فهي تعرفه جيداً كما يبدو من حديثها ، فتقول :
 إن حبك هذا ليس حباً عفيفاً ، وإنني أعرف ما تريد وتدلل على ذلك بما أكسبتها
 الحياة من خبرة ، فالرجال إذا شكوا لعبوا بعواطف النساء ، وقد يبدو من حديث
 المرأة للشاعر زيف مشاعره ، وعدم صدقه لكن هذا قد ينطبق على الصدق
 الواقعي ، أما الصدق الفني فهو لا شك متحقق في النص ؛ إذ الشاعر كما يبدو
 مغرم محب ، تغمره السعادة بهذا اللقاء ، يؤكد ذلك ما أشرنا إليه من وسائل
 مستخدمة ، والتي لا يكتفي بها ، بل يستعين باللغة ، فيستعمل ألفاظاً سهلة لينة ،
 تناسب الموقف ، ومعاني تتفق مع حالته الشعورية ، وجمل وعبارات مرتبة
 متسقة ، وهو ما يمثل الموسيقى الداخلية في النص ، ثم تأتي الموسيقى
 الخارجية لتستكمل تصوير الجو المحيط ، والحالة التي عليها الشاعر ، فيسوق
 قصيدته من مجزوء الكامل ، فتأتي في إطار من الخفة والسرعة التي تتواءم مع
 تدفق المشاعر ، وسيل الأحاسيس ، وتوالي نبضات القلب المضطرب بالحب ،
 وسواء كانت هذه التجربة قد عاشها الشاعر أو توهمها ؛ فإن صدق المشاعر
 فيها قد أكسبها ما يعرف بالصدق الفني ، وهو المقصود تحققه في النص ،
 والمراد وجوده فيه ؛ إذ هو كما نعتقد صدق الأديب في التعبير عن عواطفه التي
 أحس بها فعلاً ، فلنستطيع أن نحاسب الشاعر في إبداعه على مطابقة تجربته
 للواقع أو عدم مطابقتها لها إذا سلمنا بأن المقصود بصدق التجربة هو تطابقها مع
 المشاعر والأحاسيس ، وجودة التعبير عنها فالعقاد يقول إن (الصدق الذي
 يحاسب عليه الشاعر من الوجهة الفنية ، وهو صدق الشعور عن مزاج أصيل لا

تكلف فيه ولا اختلاف) (١) وهذا ما ينطبق تمام الانطباق على شاعرنا ، فهو شاعر صاحب مزاج أصيل ، تتوقف طبيعته وظروف حياته مع ما عبر عنه في شعره ، وما أعلنه من خلال إبداعه ، ف " تميم " صاحب موهبة تمكنه من تصوير عواطفه ، وإبرازها في صورة فنية ملانمة ، وهذا ما نلاحظه في شعره عموماً ، وفي غزله خصوصاً ، هذا الغزل الذي يحكي حالة الشاعر الشعورية بصدق ، وهي حالات تشكلت من خلال ظروف خاصة ، وبيئة اجتماعية تمثلها الطبيعة والجو المحيط بالشاعر .

ولعل نظرة عامة في غزل " تميم " تجعلنا ندرك ما تنطوي عليه تلك القصائد من تفتح نفس صاحبها للحياة، وإقباله عليها (ولذالك دلالاته على ظروف الشاعر، وحياته العامة والخاصة ، فتميم نشأ في كنف خلافة شابة فتية ، توسع سلطاتها ، وتمدد في اتجاهات عدة ، وتميم وإن حرم الخلافة فحياته بين أب خليفة وأخ خليفة لم تتقلب بهما الأيام والمحن) (٢) .

وإذا عرفنا أن " تميماً " رجل مغامرات مقبل على الحياة بكل متعها وملذاتها لا يستبقي منها شيئاً أدركنا مدى صدق تجاربه ، المرفودة بمشاعر وعواطف يصعب علينا الحكم بتكلفتها ، واستكراهها في معظم الأحيان .

(١) عباس محمود العقاد - شاعر الغزل عمر ابن أبي ربيعة ص ٢١٤ ، المجموعة الكاملة - السادس عشر - تراجم وسير ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ م .

(٢) د / أحمد سيد محمد نقائص ابن المعتز وتميم ابن المعز ص ٤٦ .

المبحث الثاني

" العقيدة "

إن " تميم " شاعر فاطمي شيعي ، يرتبط بعقيدته ومذهبه ؛ ذلك أنه ينتمي إلى دولة شيعية ؛ قد اعتمدت هذا المذهب أساساً تقوم عليه ، وعماداً ترتكز عليه سياستها ومبادئها .

وأسرة " تميم " هي التي أنشأت هذه الدولة ، وأوجدتها من العدم ؛ ومن ثم فإن شاعرنا قد رأى في ارتباطه بهذا المذهب ، ودفاعه عنه دفاعاً عن أهله ودولته ، ومن خلاله تبدو أصالته وجذوره التي تصله بالنبي (ﷺ) وأهل بيته والأئمة المهديين ، وفوق هذا وذاك يأتي تعلق الشاعر بعقيدته ومذهبه نابعاً من كونه صاحب قلب رقيق ، وإحساس مرهف ، ومن ثم فإن ما مر به أهل البيت خصوصاً ، وأصحاب المذهب عموماً من حوادث مثيرة ، قد مس إحساسه ، وهدد مشاعره ، فظهرت زفراته على شكل سيل من الشعر يعبر فيه عن أحاسيسه ومشاعره .

وها نحن أولاء نراه وقد استبدت العقيدة بنفسه وقلبه، فظهرت واضحة جلية بوصفها رافداً من روافد التجربة ، وهو ما نراه في موقف دفاع الشاعر عن عقيدته ، وحقه وحق أهله في الخلافة ، الذي يبرزه من خلال مقارنة بين أبناء " فاطمة " من ناحية ؛ وبني العباس من ناحية أخرى ، وفي القصيدة يحشد الشاعر كل وسائل الفن الممكنة ؛ لإبراز صدق تجربته ، وإثبات صحة معتقده ، وهي الوسائل التي تتمثل في الصورة المعبرة ، والموسيقى الدالة ، واللفظ الموحى ، والمعنى الذي يتخذ من الاستدلال والمنطق ركناً يرتكز عليه ، انظر إليه يقول : -

بني هاشمٍ قد تعاميتُم فخلّوا المعالي لأصحابها

أعبّاسكم كان سيفَ النبيِّ إذا أبدت الحربُ عن نابها

أعبّاسكم كان في بَدْره يذود الكتائبَ عن غابها

أعبّاسكم قاتِلَ المشركين	جِهَاراً وَمَالِكِ أَسْلَابِهَا
أعبّاسكم كوصيِّ النبيِّ	وَمُعْطِي الرَّغَابِ لَطْلَابِهَا
أعبّاسكم شَرَحَ المُشْكَلَاتِ	وَفَتَحَ مَقْفَلَ أَبْوَابِهَا
عجبتُ لمرتكبِ بَغْيِهِ	غَوِيَّ المَقَالَةَ كَذَابِهَا (١)

وفي هذا النص وغيره تختلط السياسة بالعقيدة ، أو المذهب الذي يعتمد في رؤيته السياسية على مبادئ دينية ؛ ترتبط بآل البيت وحقهم في الخلافة ، وهي عقيدة تغلغت في نفوس أهلها ؛ فانطلقوا منها في مختلف مناحي حياتهم ، ومن ثم دافعوا عنها دفاعاً مستميتاً .

لذلك رأينا الشاعر قد استجمع قواه لإثبات حقه ، ومن ثم رأينا صدق التجربة تعلن عنه صورة معبرة ، تتمثل في قوله " تعاميتم " وهو ليس على حقيقته ويقصد الشاعر تغافل بني هاشم عن الحق ، وفي قوله : " خلو المعالي " استعارة تحمل قدراً من التجسيد ؛ الذي يضع المعقول في صورة المحسوس وقوله : أبدت الحرب عن نابها فيه التشخيص الذي جعل من الحرب في شدتها إنساناً كثر عن نابه ، وفي قوله: فتح مقفل أبوابها تصويراً للمشكلة التي استغلقت وصعب حلها، يشبهها بالبيت المقفل الذي لا سبيل إلى الولوج إليه .

أرأيت إلى هذا التصوير المبتكر المتنوع بين التجسيد والتشخيص والاستعارة والكناية والتشبيه ، إنه صدق التجربة وانفعال الشاعر بها ، ومن ثم حشده لتلك الوسائل التي جاءت في طليعتها الصورة ، وتتلوها الموسيقى الخفيفة المتسارعة التي تشير إلى تسارع الأفكار ، واحتشادها في ذهن صاحبها ، وتحفره للإلقاء بها في وجه خصومه ، وهذه الموسيقى تتمثل في البحر الذي صاغ عليه الشاعر قصيدته ، وهو بحر المتقارب ذو التفعيلة الواحدة المتكررة في الشطر الواحد

أربع مرات : فعولن ، فعولن ، فعولن ، فعولن ، وهذه الوحدة في التفعيلة وذلك التكرار ؛ إنما يشير إلى إصرار الشاعر على عقيدته ، وخضوعه لمنهج لا يتغير . هذا عن الموسيقى الخارجية وأما عن الموسيقى الداخلية فإن التكرار هو أظهر مظاهرها ، نراه في قوله : أعباسكم ، وهو تكرر يشير إلى إصرار الشاعر على فكرته ، ورغبته في إقناع خصمه بالدليل ، هذا بالإضافة إلى ما في التكرار بهذه الصيغة من تهوين من قدر المتحدث عنه وضآلته إلى جانب " علي " وأهل بيته ، يضاف إلى ذلك ما لاحظناه في النص الذي أوردناه من اتساق الكلمات ، وتناسق العبارات ، وأخذ بعضها بتلابيب بعض ، ويأتي اللفظ الموحى والكلمة الدالة ؛ ليشكل وسيلة من وسائل الشاعر في إبراز صدق التجربة ، فقوله " تعاميتم " فيه شدة وقوة ، توحى بانفعال الشاعر وضيقة من تغافل العباسيين عن حقوق آل البيت ، وقوله : " المعالي " واستخدم صيغة الجمع فيها يشير إلى كثرة ما تحصل لأهله من أمجاد ، وقوله : أصحابها يشير إلى تملكهم لتلك المعالي فهي في حوزتهم ، ولا يحق لغيرهم امتلاكها ، وفي قوله : " غوي المقال كذابها " تعبير يحمل قدراً كبيراً من العنف في مجابهة الخصوم ، فهو ليس غاوي المقالة وحسب بل هو كذاب ، يدعي ما ليس له ، ويأتي المعنى والفكرة المراد إثباتها ، وقد تجلت من خلال القياس المنطقي ، والأدلة العقلية التي يعضدها الاستفهام التقريري ، نرى ذلك في قوله " أعباسكم كان سيف النبي - أعباسكم كان في بدره - أعباسكم كوصي النبي " .

وبعد أن وضح الشاعر فكرته ، ودلل عليها ، يظهر عجبه الشديد ممن يتغافل عن الحقيقة مع علمه بها ؛ ولذا فهو غوي كذاب .

إن العقيدة السياسية النابعة من معتقد ديني والتي تغلغلت في نفس الشاعر قد كانت رافد تلك التجربة ، ويظهر صدق الإنسان أكثر ما يظهر حين يرتبط الأمر بعقيدته ، ويشتد هذا الصدق حينما يكون الشاعر في موقف الدفاع عن هذا المعتقد ، ومن هنا ترتفع حرارة العاطفة ، وتثبت على درجة لا تكاد تبرحها ،

وهو ما رأيناه في النص الذي تحت أيدينا .

إننا نشعر بانفعال مكبوت ، واختناق وضيق قد استبدا بنفس الشاعر، فظهر في صورة صرخات قد احتلت معظم القصيدة ، أعانه على إبرازها تلك الأدوات الفنية المستخدمة .

ويجدر بنا أن نقول : إن رؤيا الشاعر السياسية ، والتي تعتمد على المذهبية والمعتقد، لا تكون دائماً رافداً إيجابياً ، يقوي التجربة ويغذيها فربما رأينا الشاعر يحاول إبراز رؤيته السياسية ، ومع ذلك نلاحظ فتوراً وضعفاً في المستوى الفني في إبداعه الشعري ، وربما كان مرد ذلك إلى الحالة النفسية والاجتماعية التي يعيشها الشاعر ، والتي تأتي في إطارها هذه القصيدة ، وربما اندفع الشاعر إلى إبراز رؤيته في مجال المحاجة والجدال مع الخصوم، والدفاع عن الأهل والمعتقد؛ لذلك نقول مطمئنين : إن سيطرة العقيدة الدينية على نفس الشاعر هي التي تكون غالباً رافداً قوياً ، يغذي التجربة ، ويؤكد صدقها ، ويعين الشاعر على الإبداع في تصويرها ، فحين تصبح العقيدة السياسية رافداً للتجربة ؛ ويصبح الشاعر فارساً في ميدان الحجاج العقلي ؛ نلاحظ فتور التجربة ، وهو ما ينعكس على الإبداع الشعري ؛ فترى ثقل الكلمات وقلة الصور، والأسلوب الذي يقترب من المحاجة العقلية، والمناقشة المنطقية، وهو ما يبعد بالإبداع عن الشعر، ويقربه من النظم ، وهذا ما نراه في قصيدة "تميم" التي يرد بها على "ابن المعتز" والتي يقول فيها :

يا بني هاشم ولسنا سواء	في صغار من العلاء أو كبار
إن نكن ننتمي لجدّ فإننا	قد سبقناكم لكلّ فخار
ليس عبّاسكم كمثّل عليّ	هل تقاس النجوم بالأقمار
من له الفضل والتقدم في الإسـ	لام والناس شبيعة الكفار
من له الصهرّ والمواساة والنصـ	رة والحرب ترتمي بالشّرار
من دعاه النبي خدناً وسمّاً	ه أخاص في الخفاء والإظهار

من له قال أنت مني كهارو ن وموسى أكرم به من نجار^(١)
 إنها معاني مكررة على ألسنة الشعراء الشيعة ، صاغها الشاعر بأسلوب
 مباشر ، يخلو من الخيال ، وروعة التصوير ، وقوة العبارة ، فهي مجرد كلمات
 رصها الشاعر رصاً ، ليس للفن فيها مجال ، إنه يقول : يا بني هاشم أنتم على
 اتحاد جدنا لا نتساوى في المعالي صغيرة كانت أم كبيرة ، وإذا كنا ننتمي لجد
 واحد فإننا نسبقكم إلى كل مجد ، ويبدأ بالمقارنة بين جدهم " العباس " وجده " علي " ،
 ففي رأيه لا يقاس هذا بذاك فـ " فعلي " كالقمر ، و " عباس " كنجم ، ولا
 تقاس النجوم بالأقمار ، ويحسب للشاعر أنه جعل من العباس نجماً ، فأبقى له
 شيئاً من المعالي، وبذلك احترس عن توجيهه ما قد يهين من يشاركهم في الجد ،
 وفي القرابة من النبي (ﷺ) لقد كان لـ " علي " فضل السبق في الإسلام ،
 والناس لا يزالون في ظلمات الجهل والكفر ، إنه صهر النبي وصاحب المواساة
 والنصرة ، ورجل الحرب ، إنه خدن النبي (ﷺ) الذي جعل منه الرسول أخاً ،
 حيث قال له " أنت مني بمنزلة هارون من موسى " ^(٢) .

إنها معاني وأفكار وإن ارتبطت بالدين إلا أن سوقها في سياق السياسة
 والمجادلة ؛ جعل منها أفكاراً جافة معلبة ، لا تحمل قدراً من الخيال ولا نرى فيها
 إلا الصور الباهتة ، وقد سبق القول بأن هذا الأسلوب في المحاجة والمجادلة
 والصراع في ميدان السياسة ؛ قد يفرض على الشاعر بحكم ظروف معينة ، فلا
 تمس التجربة مشاعره، ولا يفعل بها خاطره، وهذا ما رأيناه في النص السابق ،
 ولا أدل على ذلك من أن مقدمة القصيدة والتي تُرشد التجربة فيها من خلال رافد

(١) الديوان ص ١٨٦ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ : " أنت مني بمنزلة هارون بموسى إلا أنه لا
 نبي بعدي " كتاب : فضائل الصحابة ، باب : من فضائل علي بن أبي طالب جـ ،
 ص ١٨٧٠ حديث رقم [٢٤٠٤] .

آخر غير العقيدة ؛ تنعكس الصورة فيها تماماً ، حيث نرى حرارة العاطفة وسعة الخيال وجمال الصياغة وقوة التصوير ، فالشاعر كان يتحدث في موضع الغزل عن مشاعر وأحاسيس عاشها ، فتفاعل معها ، وانفعل بها ، انظر إليه يتحدث عن مرابع الأحبة بعد أن هجروها يقول :

حَكَمْتُ بَعْدَ قَاطِنِيكَ اللَّيَالِي فِي مَغَانِي رُبَّاكَ بِالْإِقْفَارِ
وَرَمْتِكِ الْخَطُوبُ مِنْهُمْ بَبِينٍ وَرَحِيلُ الْقَطِينِ مَوْتُ الدِّيَارِ
فَاسْقِيَاهَا الدَّمُوعَ إِنْ بَخَلَ الْغَيْثُ سَثُ عَلَيْهَا بَوَاكِفُ (١) مِدْرَارِ
لَيْسَ لِلدَّمْعِ إِنْ تَأَخَّرَ عَذْرُ فِدْعَاهُ فِيهَا خَلِيْعَ الْعِذَارِ (٢)

أرأيت إلى هذه الصور المعبرة ، وذلك الخيال المحلق ، والعبارات المتسقة ، والألفاظ الموحية المشعة ، نرى ذلك كله في قوله " حكمت الليالي ، رمتك الخطوب ببين - موت الديار ، بخل الغيث " ثم انظر إلى التعبير الراقى " ليس للدمع إن تأخر عذر " لقد صفت نفسه ، فصفا شعره ، فأمتع سامعه ، وأفتعه .

فإذا خرجنا من ميدان العقيدة السياسية إلى ميدان العقيدة الدينية رأينا " تميماً " وقد ملكت عليه هذه العقيدة قلبه وفكره ، فتغلغل في نفسه ، واتصلت بوجدانه ، ومن ثم كانت رافداً قوياً من روافد التجربة ، وباعثاً من أهم بواعث قوتها وصدقها ، ولسنا في حاجة إلى القول أن هذا الرافد قد كان دائماً منبع شعور صادق ، وإحساس متوهج ؛ لذلك لم نلاحظ في التجربة فتوراً وضعفاً كما رأينا ذلك في ميدان السياسة . ف " تميم " تتوهج عاطفته حين يفتخر بانتمائه إلى الرسول (ﷺ) ، وهو انتماء أصيل إذ هو من جهتي الأب والأم يقول :

إِنَّمَا لَأُمٌّ وَأَبٌ يَجْمَعُنَا خَيْرٌ نَسَبِ

(١) الواكف : الغزير ، ووَكْفُ الدَّمْعِ : قطر ، وناقة وكوف : غزيرة اللبن . القاموس ، مادة : و ك ف .

(٢) الديوان ص ١٨٥ .

إلى النبيِّ الْمُنتَخَبِ من آل عبد المَطْلَبِ (١)

وتتسع دائرة الفخر بهذا النسب فلا يجعله مقصوراً عليه ؛ فمن حق أهله جميعاً الفخر بانتسابهم إلى النبي ، يقول مادحاً أخاه :

فيا بن رسول الله وابن وصيه وحسبك ذا جدّاً وحسبك ذاك أب (٢)

وهنا يقرن الشاعر فخره بانتمائه إلى الرسول بفخره بانتمائه إلى " علي " ،

وهو الوصي كما يعتقد الشيعة وما أكثر فخر الشاعر بهذا النسب ! وما أشد

انتمائه إلى علي وبنيه ! والشيعة تعتقد أن " علي " أفضل الخلق بعد الرسول ؛ إذ

هو خدنه ، وابن عمه ، وزوج ابنته ، وأخوه يوم آخى بين المهاجرين والأنصار

ووالد سبطية " الحسن " و " الحسين " يقرر هذه الحقائق فيقول :

أفضل العالمين بعد الرسول عند أهل التمييز والتحصيل

خدنه (٣) وابن عمه وأخوه وأبو سبطه وزوج البتول (٤)

ويلح الشاعر على فكرة الانتماء الممزوجة بالفخر وهو فخر نابع من المعتقد

فنراه يقول :

فيا بن الوصيِّ ويا بن البتول ويا بن نبيِّ الهدى المصطفى

ويا بن المشاعر والمروتين ويا بن الحطيم ويا بن الصفا (٥)

(١) الديوان ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) الديوان : ص ٦٣ .

(٣) خدنه : الخدن والخذين : صاحب ومن يخادتك في كل أمر ظاهر وباطن .

القاموس ، مادة : خ د ن .

(٤) الديوان ص ٣٥ .

(٥) نفسه : ص ١٢ .

وفي ذكره للأماكن المقدسة ، ومشاعر الحج ؛ ما يؤكد ارتباط الشاعر بها ، ودرجة تقديسه ، واحترامه لها ويذكر " تميم " ما وقع لآل البيت من أحداث ، وما أصابهم من بلاء ، وما عانوه من الألم وبخاصة ما حدث للحسين في كربلاء ، وحينئذ نرى نفس الشاعر تكاد تحترق ؛ فيخرج شعره في صورة زفرات تعبر عن عاطفة ملتهبة ، وشعور ملتانع ؛ فلا تسمع والحالة هذه إلا آهات محزون وأنات مكلوم انظر إليه يقول عن قتل بني أمية للحسين :

نَحْرُوه غَيْرَ مُذَمَّم	نَحَرَ الْهَدَايَا لِلضَّحِيَّةِ
فِي كَرْبَلَاءَ يَجُودُ بِالنَّفْسِ	نَفْسِ الْمَعْطَشَةِ الصَّدِيَّةِ
حَتَّى انْتَهَى لِسِيوفِهِمْ	وَسِيَاهِمِمْ فِيهَا دَرِيَّةُ (١)
أَعَزَزَ عَلَيَّ مَجَالَهُ	ظَمَانَ فِي تَلِكِ الثَّنِيَّةِ (٢)
وَبَنُو أَبِيهِ حَوْلَهُ	بَيْنَ الْعُدَاةِ النَّاصِبِيَّةِ
قَدْ جَرَدُوا بِيضَ الْمَنَا	صَلِّ وَاسْتَعْدُوا لِلْمَنِيَّةِ
حَتَّى تَفَانُوا حَوْلَهُ	وَسُقُوا الْمَنِيَّةَ بِالسَّوِيَّةِ (٣)

المقطوعة تعد بكائية من بكائيات الشيعة وهي وإن جاءت في إطار تاريخي ؛ إلا أنها تشير في بعض أجزائها إلى بعض معتقداتهم ورؤيتهم لمتناوئهم .
إننا أمام صورة شعرية متكاملة اعتمد فيها الشاعر على صور جزئية كالتشبيه في قوله " نحروه ... نحر الهدايا للضحية " ، والكناية في قوله " يجود بالنفس " ، كما اعتمد على اللفظ الموحى المثير للانفعال من ناحية ، والمعبر عن الموقف من

- (١) درية : يريد دريئة ، وأصلها الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها .
القاموس مادة (د ر ع) .
- (٢) الثنية : العقبة أو طريقها ، أو الجبل أو الطريق فيه أو إليه . القاموس جـ ٤ ص ٣٠٣ مادة (ث ن ي) .
- (٣) الديوان ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

ناحية أخرى ؛ وذلك وفي قوله " نحروه " يعبر عن قسوة الأعداء ، وشدة ظلمهم ، وفي قوله " تفانوا حوله " ما يفيد حرص إخوة " الحسين " على التضحية وافتدائهم له بأرواحهم وفي قوله " سقوا المنية بالسوية " ما يعبر عن هلاكهم جميعاً ببطش الأعداء وقسوتهم .

" وتميم " الشاعر اللاهي العابس صاحب المجون المقبل على الحياة بكل متعها ؛ ما يلبث أن تعتريه لحظات يثوب فيها إلى رشده ، ويعود إلى ربه ؛ فنرى في شعره عاطفة دينية طاغية ، وهذا ليس بالغريب ! فقد رأيناه عند أكثر شعراء العرب مجوناً وهو " أبو نواس " ، كما رأيناه عند غيره ، فها هو ذا " تميم " وقد أطلت عليه لحظة من هذه اللحظات ؛ فتصفو نفسه ليعيش حياة روحية مختلفة عن حياته التي اعتادها ، فيسيطر عليه شعور ديني مهتاج ، ويطغى على إحساسه لون من الصفاء الروحي المؤدى بالعبد إلى القرب من الله ، ولسنا نجد لحظة صدق أكثر من هذه اللحظة ، وتميم قد عاش مثل هذه اللحظات ورأينا له فيها شعراً صافياً سهلاً ، يجري على لسانه دون تكلف أو صنعة ، نشعر معه وقد انسالت عليه الألفاظ انسيالاً ، وها هو ذا يصف قرافة ، ويصور حياة أهلها ، والجو المحيط بها فيقول :

إذا كنتَ مُصْطَفِيًّا مَرْبَعًا فحُصَّ القَرَاةَ (١) بالإصْطَفَاءِ
منازلُ معمورةٍ بالعفا فِ مْخْصُوصَةٍ بِالنَّقَى والبَهَاءِ
كأنَّ العَبِيرَ لها تُرْبَةٌ تَصْوَغُ في صُبْحِهَا والمساء (٢)

(١) القرافة بمصر : اسم لموضعين القرافة الكبيرة حيث الجامع الذي يقال له جامع الأولياء ، والقرافة الصغيرة وبها قبر الإمام الشافعي ، وكانتا في أول الأمر خطتين لقبيلة من اليمن هم من المعافر بن يعفر يقال لهم بنو قرافة ثم صارت القرافة الكبيرة جبانة .

أحمد بن علي المقرئزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئزية جـ ٢ ص ٤٤ مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) الديوان ص ٢٧ .

وينتقل الشاعر من وصف المكان إلى وصف شعوره وإحساسه المسيطر عليه فيقول :

ولا خيرةً في حياة امرئٍ	إذا لم يخفَ فصلَ يومِ القضاءِ
رجوتُك يا ربَّ لا أنني	أطعتُك طَوْعَ أوليِّ الانتهاءِ
ولكنني مؤمنٌ موقنٌ	بأنك ربُّ الورى والسماءِ
وأنتك أهلٌ لحسنِ الظنونِ	وأنتك أهلٌ لحسنِ الرجاءِ
ومالي يا ربَّ من شافعٍ	إليك سوى خاتمِ الأنبياءِ
وأني حنيفٌ بريءٌ إليك	من الشكِّ والشركِ والإعتداءِ
فصفحك عن زلتى مُنعماً	وعفوك عن نبوتى والتوائى (١)

وتتوالى لحظات الصفاء على الشاعر؛ فيخلص إلى ربه ليتحول إلى واعظ ناصح لكن يبدو أن هذه النصائح وتلك العظات ؛ قد صدرت عن شعور صادق ؛ إذ ليس ثم ما يدعو إلى نفاق الرجل أو تظاهره ، ذلك الرجل الذي مارس كل ألوان المجون رغم مكانة أسرته ، وسطوة أهله ، وظروف حياته ، ويبدو أنه قد أحس بدنو أجله فها هو ذا يقول:

زمنٌ منقضٌ وعمرٌ قصيرٌ	وحياة العُقول عنه غرورٌ
فاتق الله إن أردت نجاة	إن تقوى الإله فوزٌ كبير
أي خلق يكون أنقص مَمَّن	ليس يدري لأي حال يصير (٢)

وهكذا رأينا العقيدة بكل أشكالها السياسية والدينية قد مثلت رافداً من أهم روافد التجربة في شعر " تميم بن المعز " ، وقد كانت في معظم الأحيان نبعاً ثرا تغذت عليه التجربة ؛ فتمت وربت ، واكتسبت صفات القوة والصدق فانعكس بدوره على الإبداع الفني للشاعر .

(١) الديوان : ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) الديوان ص ١٥١ .

المبحث الثالث

الغربة والحنين

تعد الغربة بكل أشكالها رافداً مهماً من روافد التجربة في شعر " تميم " ، فالرجل - كما عرفنا من تاريخه - عاش حياة سهلة رخيّة ، في رحاب قصور الملك ، ولم يتعود الخروج من وطنه ، والبعد عن أهله وصحبه كثيراً ، فلم يكن رجل سياسة أو سفارة ، كما لم يكن رجل حرب أو قتال ؛ لذلك رأينا رحلاته قليلة تكاد تعد على أصابع اليد .

" تميم " شاعر رقيق الحس لذلك ما إن يبتعد عن محبيه حتى يستبد به الحنين إلى وطنه ؛ لارتباطه بالأرض وإلى أهله وصاحبه لرقّة شعوره وحسن تدمه . وغني عن القول أن الحنين مما يتصل بالشعور الداخلي للإنسان عموماً والشاعر خصوصاً فهي هو ذا تميم وقد فارق أهله وصحبه ؛ فنحل جسمه سقماً واستبد الشوق بقلبه وارطم في فؤاده ، لقد سافر إلى الرملة بالشام ، إنه لا تحلو له الحياة ، ولا يتمتع بلذيق العيش بعدهم ، ولم يعد له صبر على فراقهم ، ولا قدرة على تحمل بعدهم ؛ فما أشبهه حينئذٍ بمن نفي رغماً عنه ، وقد ترك أولاده في الحي ، يقول :

والشوقُ يكثرُ في قلبي ويزداد	الجسمُ ينقصُ مذ فارقتكم سقماً
أحنّ أو للذيذ العيش أقتاد	لا تحسبوا أنني للهو بعدكم
تجلدي فالأسى لي بعدكم زاد	قد عزّني فيكم صبري وفارقني
كرهاً وأمسى لها في الحيّ أولاد (١)	كأنني والهة قد شرّدت فئات

ومن الرملة أيضاً يرسل أشواقه وحنينه إلى من تخلف عن اللحاق به يقول :
أنتم في المنام حلمي وأنتم في انتباهي سؤلي وأنتم مرادي

كلُّ عضوٍ منِّي إليكم مَشُوقٌ زائدٌ تُوقِّه على الإبعاد
 لم أَفارقكمُ ولكنَّ جسمي بان عنكم وحلَّ فيكم فؤادي
 فهنيئاً لكم بكائي عليكم وهنيئاً للعين طولُ السَّهاد (١)

لقد فارقهم بجسمه ولكنه يتصورهم في حلمه وفي صحوه ، فهم معه في قلبه وفكره ، إن شوقي إليكم لا ينبع من القلب وحسب ؛ بل إن كل أعضاء مشوقه إليكم ، وإذا كنت قد فارقتمك بالجسد ؛ فإن روعي بينكم وفؤادي قد حل مجالسكم . صورة معبرة فقد جعل من الفؤاد إنساناً يحل ويرحل وفي ذلك إشارة إلى شدة التوق إلى المحبين حتى كأن فؤاده قد انفصل عن جسمه وتمرد عليه رغبة في وصال من أحب ، وفي هذه الصورة نرى ظلالاً لنظرية الحلول ؛ التي ظهرت عند المتصوفة المسلمين ، واستعملها الشيعة أحياناً ، وهي نظرية فلسفية تعود إلى أصول هندية ، ثم يهنئ صحبه ببكائه عليهم وتأكيده لهم بأنه قد أحبه حباً خالصاً ، ثم يهنئ عينه بالسهاد إشارة إلى تمتعه بالشوق والتذكر والتوق إلى الأحباب ، وهي صورة جديدة مبتكرة أنتجها شعور حقيقي ، وتجربة صادقة .

وفي موقف آخر يفارقه محبوبه ؛ ليظعن بعيداً فيدعو الشاعر حادي الركب أن يتمهل ؛ معللاً ذلك بأنه ليس شيء أوجع من البعد والفراق :

حدا الفراق فمهلاً أيها الحادي لا شيء أوجع من بين وإبعاد (٢)

إن فقدي لرؤيتهم أمر من فقد العطشان للماء

أستودع الله من فقدي لرؤيتهم أمر من فقد شرب الماء للصادي (٣)

إن الدموع في يوم الوداع تخفي ما بي من ألم ولولاها لأحرقت زفراتي كل شيء ، وهو تعبير يفيد شدة ألمه وحرقة ، وهي صورة جديدة مبتكرة .

(١) الديوان ص ١٢٨ .

(٢) الديوان ص ١٣٢ .

(٣) المصدر نفسه .

لولا دموعي في يوم الوداع إذاً لأحرقت زفراتي ثمَّ عوادي (١)
 وإذا أراد الله لنا التلاقي فإن الشكر هو أعظم زاد أتزود به
 فإن قضى بالتلاقي الله ثانيةً فالشكرُ أعظمُ ما صيرته زادي
 وفي جعله للشكر زاداً ما يشير إلى دوامه وطول أمده غبطة بما قضى الله ،
 وسروراً لما حكم به من تلاقى .

وللغربة النفسية مكان في شعر " تميم " ؛ فها هو ذا قد سافر أخوه العزيز،
 وتركه في مصر ؛ فتغيرت نظرتة إلى الدنيا ، ولم تعد كما كانت ؛ فقد أصبح
 غريباً عنها ، وأصبحت بدورها غريبة عنه .

غدا عامرُ الأوطان في مقتلتي قفراً لبينك عنها واغتدى سهلها وعرا
 وأظلمت الآفاقُ منها توحشاً كأنك كنتَ الصبح والشمس والبدر
 ومالي أرى هذي القصورَ كأنه قد امتلأت مذ غبت عن أرضها ذعرا (٣)

لقد كان الشاعر مبدعاً حين أسند تغير وجه الحياة ومعالمها إلى غياب "العزيز
 " فكأنه هو الممثل لكل شيء جميل في هذا الكون ، وبغيابه غاب كل شيء ،
 تعبير جيد ، وصورة تعلن عن عاطفة صادقة ، وشعور حقيقي .

ويقترَب من هذا ما رأيناه في شعر " تميم " من حديث عن تغير الحال بعد
 الفراق ، والحديث مع الأحبة عن بعد ، وفيه يخبرهم عن حاله بعدهم ، ويسألهم
 عن حالتهم مع التباعد والفراق .

تغيّر بعدكمُ حالي وساء لبُعديكمُ بالي
 ولا والله ما قلبي لكم ناسٍ ولا قلالي

(١) الديوان ص ١٣٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٤٦ .

وَدِدْتُ لَوْ أَنَّكُمْ تَدْرُونَ أَشْوَاقِي وَبَلْبَالِي^(١)
 وَدَمْعِي عِنْدَ ذِكْرِكُمْ وَإِطْرَاقِي وَإِذْلَالِي
 فَهَلْ تَلْقَوْنَ مَا أَلْقَا هُ مِنْ وَجْدٍ وَإِعْوَالٍ^(٢)

وإذا كان الإنسان عموماً ، والعربي خصوصاً يرتبط بوطنه ويتصل بمكانه اتصالاً يكاد يكون عضوياً ؛ فإن " تميماً " من أولئك الشعراء الذين أحبوا وطنهم ، وارتبطوا بأماكنه ؛ وما ذلك إلا لأن المكان يحتل منزلة عظيمة في نفسه ؛ بما له من ذكريات ، وما فيه من متع وملذات ، عاشها واستمتع بها فاتصلت بقلبه وفكره ، وهذا ما لحظناه في شعر " تميم " ؛ فها هو ذا يقول بعد رحيله من عين شمس :

أَيَّ قَلْبٍ كَوَى الْفِرَاقَ وَهَزَّةَ
 أَيَّ دَمْعٍ جَرَى وَقَلْبٍ تَلْظَى
 كَمْ شَمُوسٍ بَعَيْنِ شَمْسٍ أُذِيلَتْ
 مَوْقِفٍ جَارٍ فِيهِ حُكْمُ التَّصَابِي
 لَوْ رَأَيْتُ كَثِيرَ فِيهِ مَا شِئْتُ
 مَا غَزَتْنِي كِتَابُ الْبَيْتِ حَتَّى
 أَيَّ لَبِّ أَطَارَهُ وَاسْتَفَزَّهُ
 وَفَوَادٍ تَدَاوَلَ الْبَيْنُ وَخَزَهُ^(٣)
 لَوْدَاعٍ رَأَى بِهِ الْحِلْمُ عَجْزَهُ
 وَأَصَابَ الْأَسَى الْعِزَاءَ فَبَزَهُ^(٤)
 كَبَّ بَأْتِي فِيهِ كَثِيرُ عَزَّةَ
 جَعَلُوا مَوْعِدَ التَّلَاقِي بَغْزَةَ

(١) بلبالي : البلبال البرحاء في الصدر وشدة الهم . القاموس مادة (ب ل ب ل) .

(٢) الديوان ص ٣٥٢ .

(٣) الوخز : الطعن بالرمح ونحوه ، ووخذه بالرمح يخزه وخرأً : طعنه طعناً غير نافذ ، وقيل هو الطعن النافذ في جنب المطعون . اللسان [و خ ز] .

(٤) بزه : غلبه وسلبه واستولى عليه بشدة . القاموس ج ١ ص ٣٤٧ مادة : بز.ز .

فُرْقَةٌ لا تزال في العين دمعاً عند ذكري لها وفي القلب حَزَّه (١)(٢)

حديث عن الفراق تشعر معه بلوعة الشاعر، وعباراته التي تسيل من خلال الكلمات كما ترى فيها صورة لقلب كواه الفراق ، ولب قد طار، ودمع يسيل مدراراً ، ثم يعود إلى القلب الذي يتقلب في نار الفراق ، وهو يرسمه لتلك الصورة ؛ إنما يعلن عن تجربة صادقة ، وشعور حقيقي .

وقد استخدم لذلك عدة وسائل ، كان التعجب أبرزها ، نراه في قوله " أي قلب ، أي لب ، أي دمع ، أي فؤاد " ، هذا بالإضافة إلى ألفاظ تحوي من الدلالات ما يتساوق مع الموقف ويعبر عنه تمام التعبير، يبدو ذلك في ألفاظ من مثل " كواه الفراق ، أطاره واستفزه - تالظى " ، وكلها ألفاظ مع تعبيرها عن الموقف بذاتها ؛ فهي تحمل من الصور والخيالات ما يجعلنا ندرك أن الشاعر في هذا الموقف ؛ كان ينطلق من عاطفة حرة ، وشعور ملتهب ، أفرز لنا تجربة صادقة ، تجلت في إبداع الشاعر .

وهكذا رأينا الغربية والحنين ؛ وقد أدت دوراً في نتاج عدد من التجارب الصادقة في شعر تميم ، وقد آثرنا الاقتصار على هذه النماذج رغبة في الإيجاز ، واعتماداً على ما قد يلقانا في ثنايا البحث من نماذج تعبر عن هذا الرافد .

(١) الحز : القطع ، والحذَّة بالضم : القطعة من اللحم . القاموس ج ١ ص ٣٤٩

مادة حزز .

(٢) الديوان ص ٢٤٣ .

المبحث الرابع

الطبيعة

"تميم" شاعر مرهف الحس، عاش في كنف الحكم، وتقلب في رغد العيش، وهو وإن كان من أسرة السياسة شغلها الشاغل؛ ذلك أنها عملت على إقامة دولة على أساس مذهبي؛ فاحتاجت إلى الدفاع عنها، والمعاناة في ترتيب شئونها وإقامة أسسها - إلا إن "تميماً" لم يعر ذلك كله اهتماماً؛ فتغفلت من تلك المهمة، وانطلق إلى الطبيعة يحيا فيها، ويتفاعل معها، ويغترف من معينها الصافي، ومن ثم تشربت روحه حب هذه الطبيعة؛ فرق لها، ورقت له، وكانت أمه الرعوم؛ التي تحنو عليه، وهو بدوره يميل إليها، يبثها مشاعره وأحاسيسه، ويلقي إليها بما يموج في خاطره من آمال وآلام وأفراح وأتراح.

وإن كانت الطبيعة من أهم الروافد؛ التي تغذت عليها تجربة الشاعر، ومن أكبر العوامل التي أسهمت في إنضاجها؛ حتى استوت على عودها، وكانت سبباً رئيساً في غناء تلك التجربة وإثرائها، وليس من شك في أن الطبيعة تعد بحق (رافداً عميقاً من روافد التجربة الشعرية، وموقف الشعراء منها له عدة اتجاهات: فهناك من يقنع بالوصف الخارجي للطبيعة، وهناك من يشرك الطبيعة معه في أحاسيسه، وهناك من يندمج فيها اندماجاً كلياً، وهذا الاندماج يسمى بالفناء الوجداني في مشاهد الطبيعة) (١).

وشاعرنا قد ضرب بسهم وافر في كل هذه الاتجاهات؛ ذلك أنه تأثر ببيئته الغنية بمظاهر الجمال؛ سواءً كانت بيئته الخاصة، حيث القصور والحدائق والجداول والنوافير، أم كانت بيئته العامة وهي مصر بكل ما تحويه من مظاهر، تثير مشاعر الشاعر الرقيق، وتشكل باعثاً من بواعث انفعالاته، ومن ثم تكون

(١) د / صابر عبد الدائم: التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث دراسات وقضايا

استجابته لها وإفراز تجربته حيالها في شكل إبداع شعري متميز .
ويبدو تأثير البيئة في التجربة الشعرية عند " تميم " ؛ وذلك حين يعكس في شعره تأثير تلك البيئة المصرية الغنية بمظاهر الحياة الطبيعية ، لاسيما ما كان مصدرها النيل من المياه والحدائق والزهور ؛ لذلك رأينا شعر الطبيعة وقد احتل مساحة واسعة في ديوانه ، وخصص لها عدداً كبيراً من قصائده ، عدا ما جاء في مقدماته للقصائد التي تتناول المدح أو الفخر أو غير ذلك من الأغراض .
وتقترن الطبيعة في شعر " تميم " بوصفه لمجالس الخمر والغناء ، حيث النشوة التي تستبد به ؛ فترى كل شيء حوله جميلاً ممتعاً ، فها هو ذا يتحدث عن دير ^(١) القصير، ويحدد مكانه ، وهو موضع لهو بين حلوان والقافسدير ^(٢) ففيه رأى الروض ، وقد حركته أمطار هادئة بللت أوراقه بنداها وتراعي فوقه السحب التي تظهر حيناً ، وتنقش حيناً ، فتجلى عن قمر صغير، ويحدد الزمان كما حدد المكان ، فالقمر الذي بدأ نحيفاً ضعيفاً كأنه قلامة ظفر :

سَقْيَانِي بَسْفَحِ دَيْرِ الْقَصِيرِ	بين حُلْوَانَ وَالنَّقَا فُسْدِيرِ
مَا تَرَى الرُّوْضَ كَيْفَ قَدْ حَرَكْتَهُ	بِنَدَاهَا دَمَوْعُ هَذَا الْمُطِيرِ
وغيومُ السحابِ تَنْشُرُ سَكْباً	ثم تنجأبُ تارةً عن قُمَيْرِ
أَنْحَقَّتَهُ أَوْخِرُ الشَّهْرِ حَتَّى	عاد في أَفْقِهِ كَقَصِّ ظُقَيْرِ ^(٣)

(١) دير القصير : هذا الدير في أعلى الجبل ، مشرف على النيل ، في غاية النزاهة والحسن ؛ وحسن البناء ، محكم الصنعة ، وفيه رهبان يقيمون به ، وله بئر منقورة في الحجر يستقي له منها الماء ، وفي هيكله صورة مريم عليها السلام في لوح .

المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ٢ ص ٥٠٢

(٢) لم نعثر على ترجمتها في المصادر الممكنة وربما تكون مكاناً قريباً من حلوان والأولى أن يكون جبلاً لأن الأديرة غالباً ما تكون متصلة بالجبال .

(٣) الديوان ص ١٩٦ .

ويصف خمراً يشربها ، فيستعين بمظاهر الطبيعة ؛ لتصوير مدى تشوقه لها ،
 وشدة تلذذه بها ، يقول : إن الخمر التي شربناها في كؤوس تشبه الجمان
 المتدرج ، وهذه الخمر تشبه أيضاً في حرمتها حمرة الخد الذي اشتدت حرته ؛
 حتى كأنه ضرج بالدماء ، وقد وضعناها في كؤوس بيضاء ، ثم شربناها ونحن
 بين رياض من البنفسج ، وقد بدأت الشمس المنيرة من خلف رداء الغيم ؛ التي
 تبدو كوجه غادة أسفرت عنه فبدا جماله :

وراح عليها كالجمان المدحرج تلوح كماء الوجنة المتضرج
 ملأنا بها بيض الكؤوس فأقبلت تحثّ علينا في رياض بنفسج
 وخلف رداء الغيم شمس منيرة تلوح كوجه الغادة المتبرج (١)

والشاعر في هذه المقطوعة قد صور الحال الذي كان عليها بعدد من
 الوسائل ؛ كان أبرزها التشبيه " فالراح كالجمان " ، وهي تبدو كماء الوجنة
 الشديدة الحمرة ، والشمس التي تبدو من خلف رداء الغيم كأنها وجه فتاة شديدة
 الجمال . تشبيهات بعضها مكرر، وبعضها يحمل قدراً من الجدة والابتكار؛ مما
 يؤكد براعة الشاعر في استخدامه لهذا اللون من التصوير .

وما زال الشاعر يتحدث عن مجالس أنسه فينادي خليله ، وقد كان الوقت
 آخر الليل ، حيث تولى الظلام ، وأفسح المجال للصبح القادم يطلب منهما إحضار
 الخمر، أو كما يسميها القهوة البابية ، يطلبها حتى يتثنى له شربها بين النرجس
 الغض ؛ الذي يداعب السوسن وبين آس الربيع ؛ الذي يناجي البنفسج ،
 وبجوارهم نافورة تذف بالماء في وسط البركة ، وقد تدفق الماء البارد الذي لا
 تشوبه حرارة ولا سخونة ، وهو ما يضيء على الجو لونا من المتعة والبهجة ؛
 حيث النسيم العليل والهواء البارد :

- خليليّ قد ولّى الظلامُ وهمّجاً (١) وقد كاد وجهُ الصُّبح أن يتبّجأ (٢)
 فقوما إلى ساقيكما فاهتفاً به ولا تفتحا باباً من الهمّ مُرتجاً (٣)
 ودونكماها قهوةً بابليةً إذا ما فصيح عبّ فيها تلججا (٤)
 على نرجس غَض يُلاحظ سوسناً آس ربيعيّ يُناجي بنفسجاً
 وقاذفةً بالماء في وسط بركةٍ قد التحفت وحفاً (٥) من الشعر سجسجاً (٦) (٧)

إن الألفاظ دالة ومعبرة ، والصور أخاذة ساحرة ؛ فانظر معي إلى الظلام الذي تولى ، وإلى الصبح الذي جعله إنساناً قد بدا وجهه المشرق ، ثم انظر إلى النرجس الذي يلاحظ السوسن ، وآس الربيع الذي يناجي البنفسج ، فأى تصوير أروع من هذا التصوير ، وأدل على حالة الصفاء والنشوة التي عاشها الشاعر وصحبه . وقد وظف الشاعر مشاهد الطبيعة ، ومفرداتها في تصوير مشاعره من خلال الصور الشعرية الجزئية ، التي شكلت أساساً لصورة كلية ممتدة بحيث أصبح النص صورة شعرية واحدة تقريباً .

و" تميم " في تلك اللوحة قد اقتطع مشهداً من مشاهد الكون ، زاخر بالحركة ،

- (١) هملج : مضى مسرعاً، وأمر مهلج : مذل منقاد. القاموس ج ١ ص ٢١٢ مادة هملج
 (٢) بلج الصبح وتبلج : أضاء وأشرق . القاموس ج ١ ص ١٧٨ مادة بلج .
 (٣) مرتجاً : مغلق ، ورتج الباب أغلقه ، والرتج محرّكة : الباب العظيم ، والرتاج : الباب المغلق . القاموس ج ١ ص ١٨٩ مادة رتج .
 (٤) تلجج : تردد في الكلام . القاموس مادة (ل ج ل ج) .
 (٥) وحف الشعر : كثف واسود ، والمقصود تدفق الماء من البركة ، والوحف : الشعر الكثير الأسود ، والجناح الكثير الريش . القاموس - ٣ ص ١٩٧ مادة : و ح ف
 (٦) السجسج : الذي ليس فيه حر مؤذ ولا قر ، يوم سجسج : لا حر فيه ولا برد ، وهو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . القاموس مادة : س ج س ج .
 (٧) الديوان : ص ٨٨ .

عامر بالحيوية ، وفي هذه اللوحة أدت كل مفردة من مفردات الطبيعة دوراً في هذا النسق المتناغم ؛ الذي ترى فيه الحركة بكل أشكالها الناطقة والصامتة ، والتي تبدأ في ملاحظة النرجس ، ومناجاة الآس ، وحركة المياه بين النافورة والبركة ، وقد يصف الشاعر مفردة من مفردات الطبيعة ، غير أنه يستعين بمظاهر طبيعية أخرى ، تعينه على كمال الوصف ، وتمام الصورة ، فحين يصف بركة الحبشة ، وخليج بني وائل يحدد الزمن ، وهو وقت الضحى غير أن القمر قد تمثل فيها ، وهو قمر غير القمر الذي يبدو في الظلام ، وهي مفارقة قصد إليها الشاعر؛ رغبة في إثارة سامعه ، وإيقاظ انفعاله ، يقول :

كَأَنَّ الْبِرْكََةَ الْغَنَّا إِذَا مَا غَدَتْ بِالْمَاءِ مَفْعَمَةٌ تَمُوجُ
وَقَدْ لَاحَ الضُّحَى مِرَاةً قَيْنٌ (١) قَدْ انصَقَلَتْ وَمَقْبُضُهَا الْخَلِيجُ
تُرَى قَمَرَ الدَّجَى قَمراً حِدَاهُ طُلُوعاً مَا لَهُ فِيهَا بُرُوجٌ (٢)

ويرتبط وصف الطبيعة عند الشاعر غالباً بارتباطه بالمحبيب ؛ فكأنه يستحضر مشاهد الطبيعة معينة له على إبراز مشاعره ؛ فها هو ذا يتذكر حبيبه عندما رأى النسرين ؛ الذي أشبهت ريحه ريح حبيبه ، وما أجمل النسرين هذا ، غير أنه حرك فيه نواعج الشوق ، وأثار في قلبه مشاعر حزينة ؛ ذلك أنه ذكره بالحبيب الذي هجره يقول :

أَذْكَرُنِي النَّسْرَيْنِ لَمَّا أَتَى رِيحَ حَبِيبٍ لِي أَطَالَ الصَّدُودُ
كَأَنَّمَا قَبَلْتُ مِنْ نَشْرِهِ بِيضَ الثَّنَايَا وَاحْمِرَارَ الْخُدُودِ
مَا أَجُودَ النَّسْرَيْنِ لَكِنَّهُ ذَكَرْنِي مَنْتَرِحاً لَا يَجُودُ (٣)

(١) قين : الصانع ، والقين الحديد يقينه سواه والشيء لمة والإناء أصلحه ، والتقيين : التزيين . القاموس ج ٤ ص ٢٥٧ مادة القن .

(٢) الديوان ص ٩٠ .

(٣) الديوان ص ١٢١ .

وتبدو براعة الشاعر في رسمه لتلك الصورة النفسية التي تعلن عن حالة من التردد بين الإعجاب بجمال النسرين ، وضيقة منه لأنه ذكره بهجر إلفه وحببيه . ولا يكتفي الشاعر بالوصف الخارجي للطبيعة ، بل ربما أشرك بعض مشاهدتها في مشاعره ، وقد تصل هذه المشاركة إلى التوحيد فيها هو ذا يرى ذكر الحمام ؛ وقد فقد إلفه فبكي بكاء أثار مشاعره ، وحرك إحساسه ؛ فقد ذكره بما أصيب به من فقد للإلف والحبيب ، غير أنه يقدم لذلك بوصف للطائر، والحالة التي كان عليها ، فهو موله محزون فيبكي فوق غصن تحركه الريح يمنة ويسرة ، ثم يعرج على وصف الطائر نفسه بعد أن وصف حالته النفسية أن حوافيه لينة ، وقوادمه مبللة ، وعيناه محمرة ، وكأنما استمد احمرار عينيه من الياقوت ؛ حيث حسده فأخذ احمرار عينه ، إن متن هذا الطائر أشد من سواد الليل ، وجيده ونحره أكثر بياضا من الفضة ، يقول :

وأرَّقَ العَيْنَ بالحَيِّينَ مُتَّلهِ ^(١)	يُقَطِّعُ الليلَ تغريداً وتعديداً
موفٍ على غُصْنٍ بانٍ تستميل به	نواسم الريح تصويباً وتصعيداً
لانت حوافيه واخضلت قوادمه	ففتنَّ في لينهنَّ الخُردَّ الغيدا
كأنما حسد الياقوت مقلته	في حُسنٍ تصريحها فاحمرَّ توريدا
متنَّ كصَبغِ الدجى نيطت حوالكه	بفضَّة صاغ منها النحر والجيدا ^(٢)

وينتهي الشاعر من رسمه لصورة الطائر ، والتي برزت من خلالها حالته النفسية ، واكتملت أوصافه الخارجية فلم يغادر جزءاً من أجزاء الطائر إلا صورته تصويراً كاملاً ؛ لينطلق بعد ذلك إلى رسم صورة تبرز المشاركة الوجدانية ، والتوحد في المشاعر الذي يؤكد تشابه حالة الطائر مع حالة الشاعر يقول :

(١) متله : المتردد المتجبر ، وهو من الوله : والوله : الحزن وذهاب العقل والخوف .

ووله فهو واله واتله أي متحير . القاموس جـ ٤ ص ٢٩٠ ، مادة : وله .

(٢) الديوان : ص ١٢٦ .

تبكي حمامته ما تأتلي كمداً تردّد الصوت بالتغريد ترديدا
لولاه ما ألق في آثار دارهم لي مُسعداً يؤنس الأطلال والبيدا
بكي فأبكي جفوني ملئهنّ دماً وجدّد النوح لي إذ ناح تجديدا
إلفي وإفك باتا يا حمامُ فنحُ حتى تنوح ونستبكي الجلاميدا (١)

ويسترعي الانتباه هذا الاندماج في الطبيعة ، وحالة التوحد بين الشاعر وبين أحد مفرداتها ، وهو الطائر، فقد جمعت بينهما حالة من الحزن ، يستوي فيها الشاعر مع هذه المفردة ، فقد لمس الشاعر هذه الحالة في نفسه ، وأحسها في ذلك الطائر، ومن ثم توحد معه في أسلوب ؛ طالما رأيناه عند شعراء العرب الأقدمين فالأعشى يقول مثلاً :

كِلَانَا إِذَا مَا نَالَ شَيْئاً أَفَاتَهُ وَمَنْ يَحْتَرِثَ حَرِثِي وَحَرَّتْكَ يُهْزَلُ (٢)

وصفحات الديوان تمتلئ بصور لمشاهد الطبيعة ، التي يبدو لنا أن الشاعر لم يغادر منها شيئاً ، فقد صور الرياض والزهور والأديرة والقصور والليل والقمر والصبح والضحى والنسيم والرياح والحيوان والطيور والجبال والصخور ؛ فكأنه قد خلص للطبيعة ، وخلصت له ، ومن ثم أحسن توظيفها في تصوير مشاعره ، وإبراز أحاسيسه ؛ فشكلت بذلك رافداً من أكبر روافد التجربة عند الشاعر ، ولسنا نشك في أن نماذج مختلفة وقصائد متعددة ستلقانا في دراستنا للتجربة بمراحلها المختلفة عند الشاعر .

(١) الديوان : ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني - شرح المعلقات السبع ص ٢٧ - دار الكتب العلمية - بيروت . لبنان ط ١ / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ونسبه بعض الرواة لتأبط شراً فروى البغدادي في الخزانة عن الأصمعي قوله هذا أقرب إلى كلام صعلوك منه إلى كلام لممك .

المبحث الخامس

الزمن

يشكل الزمن رافداً من روافد التجربة عند " تميم " ؛ حيث يثير لدى الشاعر عواطف معينة ، ومشاعر مختلفة ، ومن ثم يستعين به بوصفه إطاراً لتجربته حيناً ، ومعينا يستقي منه هذه التجربة حيناً آخر، وهذا الرافد وإن لم يكن كغيره من الروافد التي تحدثنا عنها آنفاً ؛ إلا أنه متواجد في إبداع الشاعر، وليس بوسعنا تجاهله أو إغفاله ، فهذا هو ذا " تميم " يتحدث عن حبيب له ، وشعوره تجاهه ؛ فيستعين بمفردات الزمن لتشكل إطاراً لتجربته ، فحبيبه هذا رقيق اللفظ ، جميل الوجه ، يشبه البدر ، أو يشبه الشمس كأنه شك من الشاعر، ومن ثم يستحضر الزمن حكماً في هذه القضية ، يقول مخاطباً محبوبه :

فالليل خالك بدره والصبح ظنك شمسه (١)

وليؤكد جمال محبوبه يثير الشاعر قضية أخرى ؛ يكون الزمن بطلها ، فيرسم صورة يبدو من خلالها تنازع بين اليوم الذي يعيشه ذلك المحبوب ؛ وبين أمسه وغده .

واليوم أصبح حاسداً غده عليك وأمسّه (٢)

والشاعر بتشخيصه للزمن ؛ يبعث قدراً كبيراً من الحيوية والحركة في صورته ، فالليل يتخيل ، والصبح يظن ، والتحاسد رأيناه بين الأيام ، وهذا ما أكسب تجربته لوناً من القوة ، وأضفى عليها شيئاً من حرارة العاطفة .

وتنتاب الشاعر حالة من التشاؤم ؛ على كاهل الزمن ، الذي يراه متلون لا يقر له قرار ؛ ولذلك فليس له دواء إلا التمتع بشرب الخمر ، والاستمتاع

(١) الديوان ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٨ .

بألوان اللهو (١) .

الراح أجمعُ للسرورِ وأنفعُ في مثلِ ذا اليومِ الذي يتلمّع

صحوً وغيمٍ في سماءٍ أصبحت وكأنّها بهما غراب أبقع (٢)

وفي ذلك اليوم يشتد عصف الرياح ، فيثير ذلك مخاوف الشاعر :

يوم كأنّ الريح في أرجائه لُحْفٌ مشفّقةٌ تمرّ وترجع (٣)

وهكذا كان الزمن رافداً من روافد التجربة عند " تميم " ، أضاف إليها وساعد

على تصويرها ، وكان عاملاً مهماً في نضجها واكتمالها .

(١) الغراب الأبقع : الذي فيه سواد وبياض ، وهو أخبث الغربان ، والبقع محرّكة في

الطير والكلاب كالبلق في الدواب . القاموس ج ٣ ص ٦ مادة البقع .

(٢) الديوان ص ٢٦٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٨ .

المبحث السادس

المكان

وكما شكل الزمان رافداً من روافد تجربة تميم ؛ كذلك كان المكان رافداً مهماً من روافد تلك التجربة ، والشاعر حينئذٍ يستعين بالمكان على توضيح مشاعر وأحاسيس تجاه شخص بعينه ، وربما انصبت تجربة الشاعر على المكان نفسه ؛ فكان هو مبعث التجربة ، ومنبع المشاعر والأحاسيس ، والجو المهيمن على نفس الشاعر، وربما جمع الشاعر بين الزمان والمكان ، وصنع منهما إطاراً لتجربته ، فها هو ذا يوائم بين الزمان والمكان ؛ ليعبر عن تجربة عاشها ، وانفعل بها ، فأثرت في نفسه أيما تأثير، فنراه يصور لحظة قد اختلسها من الدهر اختلاصاً ، وفيها تمتع بالحياة في ظل طبيعة جاذبة ، وجو صاف ، غير أن المكان يستبد بالتجربة ليشكل رافداً ، فالزمن هنا ليس إلا مدخلاً يلج من خلاله الشاعر إلى تصوير تجربته ، يقول :

ويومٍ خَدَعْتُ الدَّهْرَ عَنْهُ فَلَمْ أَزَلْ أُعَلِّلُ نَفْسِي فِيهِ بِالرَّاحِ مَعَ صَحْبِي (١)
وهنا يأتي دور المكان ؛ الذي يجعل منه الشاعر وعاءً لتجربته ، فيصوره أتم تصوير؛ وكأنه أراد أن يصور حالة السعادة والتمتع ؛ التي عاشها من خلال تلك الطبيعة ؛ التي حازت أوصاف الجمال ، ولم تغادر منها شيئاً في نظره ، ذلك أنه قد صورها من خلال نفس فرحة سعيدة ؛ ترى الكون كله من حولها جميلاً ، ومن ثم فقد انعكست صورة نفسه على صورة الكون من حوله ، وعلى هذا الأساس شكل المكان رافداً قوياً ، استطاع الشاعر من خلاله إبراز تجربته ، وإعلان عاطفته التي سيطرت عليه ، لقد جاد صدق التجربة على الشاعر بتصوير حالته أتم تصوير ، ومن ثم فقد رأيناها وقد ألم بأجزاء الصورة ، واستكمل مفرداتها ،

(١) الديوان ص ٦١ .

إنه قد عاش لحظات المتعة تلك .

لدى روضةٍ عالَتْ رُبَاهَا كُرُومُهَا وجاد عليه النيلُ من مائه العَذْبُ
كأنَّ سحيقَ المسكِ خالطَ أرضَهَا فجالت به فيها الرِّيحُ مع التُّرْبِ^(١)

إنها روضة ذات ربا ، تكسوها أشجار الكروم ؛ التي تسحر بمنظرها العيون ، ثم هي تطل على النيل الذي يرويها بمائه العذب ، وعذوبة هذا الماء تشير إلى صفاء نفس الشاعر، وكمال استمتاعه وسعادته ، ثم هي روضة ترابها له ريح طيب ، كأن سحيق المسك قد خالط ترابها ، وتؤدي الرياح دورها في نشر تلك الريح الطيب بإثارتها لهذا السحيق ؛ المختلط بأرض تلك الروضة ، ويعرج الشاعر على النيل ؛ ليصف ما يضمه من سفن ؛ يحسن الشاعر تصويرها ، وهو تصوير يشف عن حالة شعورية لدى الشاعر، تنعكس بدورها على كل ما يحيط بصاحبها ، فنراه يقول :

كأنَّ بناتِ النيلِ والرِّيحُ تَرْتَمِي بهنَّ طُلَى^(٢) خيلِ مؤثَّلة^(٣) شُهْب^(٤)

لقد أعجبه منظر السفن في النيل ؛ التي تداعبها الرياح مع طولها ؛ الذي يشبه أعناق الخيل المؤثَّلة السهب .

ويعود الشاعر إلى تصوير مياه النيل في صفائها فيشبهها وقت الضحى بمتون السيوف المصقولة في بياضها وصفائها يقول :

(١) الديوان ص ٦١ .

(٢) طلي : الطلاء ما يدهن به جسم الخيل أو البعير، والطلاء ككساء : القطران وكل ما يطلى به . القاموس مادة (ط ل ي) .

(٣) مؤثَّلة أصيلة ، وتأنل : تأصل والإثال كسحاب : المجد والشرف . القاموس ، مادة (أ ث ل)

(٤) الديوان ص ٦١ .

وطوراً تَخال الماءَ في رونقِ الضُّحَى مُتُونِ سِيوفِ لُحْنِ مِصْقُولَةٍ قُضْبِ (١)

وهذا الماء الرائق الصافي تداعبه الرياح ، فيهتز ويتموج كأنه قوارير تتراقص بين يدي اللاعبين به :

وتَحسبه إن مَخَّضته يَدُ الصَّبَا قَوَارِيرَ ما يَفْتَرَن من قلقِ اللَّعْبِ (٢)

وإلى هنا يكون الشاعر قد استكمل أجزاء الصورة المحيطة به ، غير أننا نود أن يجعل تصويره للسفن ؛ بعد استكمال تصويره للماء ، حيث بدت هذه الصورة في مكانها قلقة، ويمكن تعليل ذلك بأن نفسه التي لا تكاد تثبت على حال؛ لفرحها وطربها ، ومن ثم فإنه قد أتى بتلك الصورة حسبما أسعفته مخيلته وذاكرته الشعرية ، هذا بالإضافة إلى أن السفن هي مما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالماء ، فلا يكاد ينفصل عنها أو تنفصل عنه . وهكذا سيطر المكان بكل ما يحتوي على نفس الشاعر؛ فشكل رافداً لتجربته، وانعكست التجربة بدورها عليه، فكان ما يمكن أن نطلق عليه العلاقة المتبادلة بين المكان والتجربة ، وتنضب تجربة الشاعر على المكان الذي يشكل بدوره عنصراً رئيساً من عناصر التجربة ، ورافداً مهماً من أهم روافدها ، وذلك حين تصفو نفسه ؛ ليعيش حياة روحية ، مختلفة عن حياته التي اعتادها ، فيسيطر عليه شعور ديني مهتاج، ويطغى على أحاسيسه لون من الصفاء الروحي ؛ المؤدي بالعبء إلى القرب من الله ولسنا نجد لحظة صدق أكثر من هذه اللحظات ، وفيها رأينا له شعراً صافياً سهلاً ، يجري على لسانه دون تكلف أو صنعة ، يشعر فيه وقد انسالت عليه الألفاظ انسيالاً وأنته المعاني أرسالاً فها هو ذا يصف قرافة ، ويصور حياة أهلها، والجو المحيط بها فيقول :

(١) المصدر نفسه ص ٦٢ .

(٢) الديوان ص ٦٢ .

إذا كنت مُصْطَفِيًّا مَرْبَعًا فُخْصَ القَرَأَةَ بِالإِصْطَفَاءِ
 منازلَ معمورةً بالعَفَا فِ مَخْصُوصَةٍ بِالتَّقَى وَالبَهَاءِ
 كأنَّ العَبِيرَ لَهَا تَرْبَةً تَضَوَّعَ فِي صُبْحِهَا وَالمَسَاءِ
 وَيُحْيِي النَفُوسَ بِأَرْجَائِهَا رَقِيقُ النَسِيمِ وَطِيبُ الهَوَاءِ
 ديارٌ أديرُ بهنَّ النَعِيمِ وَمَعْنَى كَمَلْتَنِّ رَجَعَ الغِنَاءِ
 تَزِيدُ الشَّمُوسُ بِهَا بِهْجَةً وَتَحْسُنُ فِي مُقَلَّتِي كُلِّ رَاءِ (١)

إن المكان جدير بالاصطفاء ، فمميزاته كثيرة ، والجمال في هذا المكان ليس حسياً وحسب ، بل هو جمال روحي معنوي يأسر النفس ، ويسيطر على الفؤاد ، فهي منازل معمورة بالتقوى والعفاف ، إلى جانب ما فيها من بهاء يمثلته ذلك العبير؛ المنبعث من ترابها ، والمستمر طول يومها . ومن مظاهر هذا البهاء : طيب الهواء ، ورقة النسيم الذي يحيى النفوس ، ألا ترى كيف جمع الشاعر أطراف الجمال لذلك المكان ، غير أنه يأبى إلا أن يكمل الصورة ؛ فيرسم لنا صورة لسكانها ، بل لحياتهم التي يحيونها ، ومعلوم في هذه الأيام أن القرافة كانت مسكونة بالكثير من المتصوفة ، والذاكرين والزاهدين والعباد ، ومن ثم فإن الأذان يدب في أرجائها ، فيوقظ النوم ، فتراهم بعد ذلك ما بين ذاكر لربه ، ومتوجه إليه بالدعاء يقول :

وينبه فيها النيام الأذان إذا مزَّقَ الليلَ سيفُ الضَّيَاءِ
 فمنَ ذاكرِ رَبِّهِ خَشْيَةً وَمِنْ مُسْتَهْلِ بطولِ الدعاءِ (٢)

رأى الشاعر هذه المناظر ، وعاش في ذلك المكان ، فصفت روحه ، ورقت

(١) الديوان ص ٢٧ .

(٢) المصدر نفسه .

نفسه ، ونسي ما كان فيه من نعيم وملذات ، ومن ثم رأيناه وقد جرت الحكمة على لسانه ، وتوجه مخلصاً إلى ربه ، يطلب منه ويرجوه ، يقول :

ولا خيرةً في حياة امرئٍ إذا لم يخفَ فصلَ يومِ القضاءِ
رجوتُك يا ربَّ لا أنني أطعُك طوعاً أولي الانتهاء^(١)

إن الصورة الكلية التي رسمها الشاعر للمكان ؛ قد كانت وسيلته في إبراز مشاعره ، وتوضيح إحساسه ، وصدق تجربته ، إنك تشعر حين تقرأ الأبيات أن الشاعر يعيش حياة هادئة وادعة مطمئنة ، ليس فيها خوف ولا رهبة ، وقد نجح في تصويره ذلك ؛ عن طريق التصوير الكلي ، الذي ضم في أرجائه صوراً جزئية تشكله ، بالإضافة إلى موسيقى صافية هادئة ، تناسب الروحانية التي تغشى المكان ، هذا بالإضافة إلى ألفاظ معبرة ، استقاها من بيئته ؛ ومخزونه الثقافي والعقدي .

وقد يستعين الشاعر بالمكان في تصوير مشاعره ، فيشكل حينئذٍ عاملاً مساعداً في إنضاج التجربة ، فهذا هو ذا يريد أن يصنع هالة من التقديس حول ممدوحه ، فيستعين بالمكان ، ويختار منه ما هو مقدس ، فينسب الممدوح إليه ؛ لتنعكس قدسية المكان على الممدوح .

ويبرع الشاعر غاية البراعة ؛ حين يبعث الحياة في تلك الأماكن ، ويجعل منها أباً للممدوح يحنو عليه ، ويمنحه عطفه ، ويسبغ عليه حنانه ، انظر إليه يقول :

ويا بنَ المشاعرِ والمَروَتينِ ويا بنَ الحَظيمِ ويا بنَ الصِّفا^(٢)

فهذه المشاعر التي ذكرها هي أماكن معروفة بمكة ، جعل منها الشاعر أباً

(١) المصدر: ص ٢٧ .

(٢) الديوان : ص ١٢ .

للممدوح ، فخلع عليها من المشاعر والأحاسيس ما يمنحها الصفة الإنسانية ،
ومن ثم أكسب تجربته عمقاً وثراءً ، وربما أراد الشاعر لهذه الأماكن ما أراد
الشيعة والفاطيون ؛ من أنها صفات يقصد بها " علي بن أبي طالب " وبنيه ،
وحينئذٍ لا يكون الشاعر قد تجاوز توظيف المكان لخدمة تجربته ، ذلك أن تلك
الأماكن ؛ سواء كانت مقصودة لذاتها ، أم كانت لوصف الإمام وبنيه ، فإنها على
كل حال أماكن توحى بالقدسية باسمها أو صفتها .

ومن خلال ما عرضناه من نماذج يتبين لنا مدى تأثير المكان في تجربة
" تميم " ، ودوره في إكمالها وإنضاجها ، ومن ثم يكون رافداً ينضم إلى ما سقناه
من روافد ؛ أسهمت في تطوير شاعرية الرجل ، وثناء تجربته وإغنائها .

الفصل الثاني

أبعاد التجربة في شعر تميم

تتسع رؤية الشاعر فترتاد آفاقاً متعددة ، وتعبر عن قضايا مختلفة ، ومن ثم تتمثل أمامنا أبعاد شخصية الشاعر، وترتسم في أعيننا صورة لجوانب تلك الشخصية المختلفة ؛ تبرز رؤاه ومشاعره وواقعه وحالته النفسية والفكرية ، ويأتي تبعاً لذلك قضايا التاريخ والمجتمع ، وما يتصل بها من واقع معاش أو متخيل وبناءً على ما قدمناه نستطيع أن نقول : إن التجربة عند " تميم " قد أخذت أبعاداً متعددة ، وأشكالاً مختلفة ، فمنها : التجربة الذاتية ، والتجربة الإنسانية ، والتجربة النفسية ، والتجربة التاريخية ، والتجربة الواقعية ، وأخيراً تأتي التجربة الخيالية التي تعبر عن قدرة الشاعر الإبداعية وموهبته الفنية ، وهو ما يؤكد قوة موهبة الشاعر وثراء تجربته وعمقها واتساع أفاقها ، فالشاعر الحق هو الذي تتكشف أبعاد شخصيته من خلال تجاربه ، وهو ما تكشف عنه القراءة الواعية لشعر تميم بن المعز ، ومن هنا كان لزاماً على الباحث تناول أبعاد تلك الشخصية التي يظهرها تعدد تجاربه وتنوعها . وتبعاً لذلك فقد جاء هذا الفصل مشتملاً على عدة مباحث نفصل القول فيها على النحو الآتي .

المبحث الأول

التجربة الذاتية

تميم بن المعز شاعر رقيق الحس ، مرهف الشعور ، عاش حياة رغدة مترفة ، فأخذ منها بحظ وافر ، وانغمس فيها بكل جوارحه ، ومن ثم كانت استجابة الشاعر لهذه المؤثرات ، وانفعاله بها ، ومع أن تميم " عاش " في كنف أسرة سياسية إلا أنه لم يلق لذلك بالاً ، فخلص إلى ذاته يعبر عنها ، وانطلق إلى حياته الخاصة يصورها ؛ لذلك كله رأينا أنفسنا أمام شاعر ينكفي على ذاته ، فيجتز مشاعره وأحاسيسه ؛ لتخرج سيلاً جارفاً يغمر ديوانه ، ويغطي السواد الأعظم من صفحاته ، ولسنا نجد في قراءتنا لشعر " تميم " قضية يناقشها ؛ إلا واتصلت بذاته بشكل من الأشكال ، وما ذلك إلا لأن (التجربة الأدبية منبعها النفس ، وباعثها الانفعال الصادق ، فهي استقبال واع للأحداث ، وهي في أرقى تصور لها تتعامل مع أثر الأحداث ومداها ، وتنتأى عن الرصد المباشر لها ، وهي ترجمة فنية لما يمور في أعماق النفس من أشواق ، نحو إعادة تشكيل الواقع واستشراف آفاق المستقبل)^(١) .

وفي دارسنا لروافد التجربة عند " تميم " عرضنا لنماذج عبر الشاعر من خلالها عن تجارب ذاتية ، عاشها في واقعه أو التقى بها في خياله ، وإذا كان شعر " تميم " يعج بهذا النوع من الشعر؛ الذي يعبر عن شخصية الشاعر وبعدها الذاتي فللسنا نرى بأساً من أن نزيد القارئ من هذه النماذج ؛ حتى يتجلى لنا ذلك البعد من الشخصية .

" و تميم " شاعر رقيق ، تعود الشرب من كؤوس المتعة ؛ في رحاب الوصل

(١) د / صابر عبد الدايم : التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث دراسات وقضايا

واللقاء ؛ لذلك يؤلمه البين ، ويقض مضجعه الفراق ، فتسمع كلماته زفرات ،
وشعره عبرات ، انظر إليه يقول :

تُرى الدَّهرَ يَشْفِي عِلَّتِي وكروبي ويسمَح لي بعد النَّوى بحبيبي
حبيبٌ له قلبي ولي غيرُ قلبه رَمته النَّوى عني بسهم مُصيب
وما كان إلا مهجتي حازها الأسي وشمس نهاري آذنتُ بغروب
فمالي حبيبٌ بعده غيرُ ذكره ومالي أنيسٌ فيه غيرُ نحبي (١)

لقد غاب حبيبي فهل يسمح الدهر بحبيب غيره ؛ يعوضني فقد من أحببت ،
والاستفهام فيه قدر من الاستبعاد ، وفيه شيء من الحسرة والتألم ، لقد فارقته
فاستحوذ الأسي على مهجتي ، وأصبح نهاري ليلاً حالماً ، لقد أحببت ذكرها إذ لم
يبق لي غيرها ، وغير النحيب الذي أصبح رفيقي ومؤنسي .

عبارات سهلة ، وألفاظ معبرة عن الموقف ، تراها في قوله " غروب -
نحيب - أسي - مصيب - كروب " وكلها ألفاظ تجلي موقف الحزن والأسي ،
وجو الفراق المؤلم ، والبين الممض .

ثم انظر إلى تصويره ؛ الذي وإن لم يكن جديداً مبتكراً ؛ إلا أن الشاعر قد
كساه ثوب الجدة ؛ بما أصبغه عليه من مشاعر ملتهبة ، وعاطفة جياشة ، إن
شمس نهاره آذنت بالغروب ، والأسي قد حاز مهجته ، والنحيب أنسه وجليسه ،
فالاستعارة كانت العماد الذي ارتكزت عليه الصورة ، مع البعد عن التشبيه الذي
كثر في شعره ؛ وما ذلك إلا لأن " تميماً " في هذا الموقف لم يلتفت إلا إلى
مشاعره ، فلم يهتم بتكلف أو تصنع .

وفي سبيل وصل حبيبه يتحمل كل مساءة ، ويبذل كل ما يملك ، غير أن
حبيبه لا يرق فهو ينافر ويقاطع :

قد كنتُ أركبُ في هواك مساءتي فعلَ المحبِّ الصبَّ بالمحبيبِ
وأجود بالنفسِ النفيسةَ جاهداً لك في الهوى ويطيبُ لي تغذيبي
كيما أراك على الوفاءِ وأجنتني معسولَ وصلِّك وهو غير مشوبِ
فغدرتُ غيرَ مُغادرٍ وقطعتُ غيرَ — رر مقاطعَ وأربتَ غيرَ مُريبِ (١)

ويصف الشاعر موقف الوداع ، فترى في مطلعها الدمع والعبرات ، وتسمع الأئين والزفرات ، لكن الشاعر ما يلبث أن يخلص من هذا الموقف حتى يلتفت إلى محبوبه ، فيثيره الجمال ، ويبهره الحزن يقول :

عانقتها يومَ النَّوى وِلدمعِها متحدرً ولقلبيها خفقانُ
ولسانها خرسٌ ولكن للهوى في دمعِ مقلتها فمٌ ولسانُ
وحتى إذا احتزَّ الوداعُ وأحرقتُ أكبادنا بلهيبها الأشجانُ
لاحت بدورُ التَّم تحت برأقع ثم انثنى تحت المُروطِ البانِ
وأفضنَ ماءَ عيونهنَّ فجال في تلك الخدودِ كأنه عقيانُ (٢)

وفي هذه النماذج تتجلى ذات الشاعر الحزينة ، ونفسه الحري ، وعيونه الباكية ، وقلبه القلق المضطرب ، وقد أبان عن ذلك بوسائل تناسب الموقف ، وتتلاءم مع الجو المسيطر، وتتوافق مع التجربة .

ويصف الشاعر حبيبه وصفاً خارجياً ، مبرزاً جماله الحسي ، ومصوراً أثر هذا الجمال عليه ، ومدى انفعاله به يقول :

فترته من فتورِ عينيهِ وحره من لهيبِ خديهِ
أسكرني لحظُ مقلتيهِ كم أسكر عينيهِ لدغُ صدغيهِ (٣)

(١) الديوان ص ٤٨ .

(٢) السابق ص ٤٤٧ .

(٣) السابق ص ٤٦٣ .

ولا يزال الشاعر يحاول رسم صورة ؛ تعتمد على الجمال الحسي للمحبوبة ، وذلك من خلال أوصاف مكررة ؛ تعارف عليها الشعراء ، إلا أن الشاعر قد أصبغ عليها من فنه وعاطفته ؛ ما بعث فيها روحاً ونشاطاً ، وبث في أرجائها حركة وحياة ، فها هو ذا يقول :

حبيبٌ وصلهُ للبين وقِفٌ ولى فيضُ الدَّموعِ على نَوَاهِ
براه اللهُ من نُورٍ وماءٍ فلولا ثوبُهُ انحلَّت قُوأهُ
تَعيبُ الورْدَ حمرةً وجنتيهِ وتلعبُ بالقرائحِ مُقلتاهِ
تَبَسَّمَ عن حَصَى بَرْدٍ ولكن جنيتُ الجمرَ صرفاً من جَنَاهِ (١)

ويمكن القول أن الغزل عند " تميم " قد شكل ميداناً فسيحاً ، يفصح الشاعر من خلاله عن تجاربه ، ويبين عن قوة عاطفته ، غير أنه في بعض الأحيان يأتي في القصيدة ؛ بوصفه تقليداً شعرياً متبعاً لدى جماعة من الشعراء لغرض ، من مثل أن يأتي الغزل بوصفه مقدمة شعرية لغرض آخر رئيس ؛ يهدف إليه الشاعر ، وحينئذٍ تفقد القصيدة ميزة الصدق ، والذي نعني به الشعور والانفعال .

والشاعر لا ينجح في عمله إلا إذا كان صادق الحس ، سريع الانفعال بما يعبر عنه ، فهو لا يستجيب إلا لما سيطر على روحه ، وملك عليه نفسه ، ومن ثم يمكن الحكم على مثل هذا النوع من الشعر؛ بأنه قد خرج من نطاق التجارب الصادقة، لذا نراه وقد حمل بين ثناياه عاطفة فاترة ، وصورا تبدو باردة متكلفة ، تخلو من نبض الحياة ، ووهج الإحساس ، وتوقد الشعور، وما ذلك إلا لأن الصدق في التجربة الشعرية لازم لها ، بل هو أساسها الذي لا وجود لها أصلاً بدونها^(٢) ، وفي شعر " تميم " من هذا النوع الذي يأتي بوصفه تقليداً شعرياً ، أو

(١) الديوان ص ٣٣ .

(٢) انظر د / عبد الحميد هلال - في النقد الأدبي الحديث ص ٤٨ ، ٤٩ .

معرضاً يبرز الشاعر من خلاله قدرات خاصة ؛ على إبداع مثل هذا التقليد ، أو إظهار عدم عجزه عنه ، وهذا يبدو واضحاً في مقدمته الغزلية من مثل ما نراه في قوله :

الآن قَدَّ الفؤادِ نصفينِ	فيه وأجرى الدموعَ نوعينِ
لما انحنتُ نونُ صدغِهِ فرمى	عن قوسِها واتَّقَى بعَيْنينِ
وانتصبتُ نصفُ صادٍ شاربه	وخطَّ من عارضِيهِ لامينِ
ومدَّ صدغِيهِ في بياضِهما	ليأينِ صُبًّا على نهارينِ
وردَّ رأسَ العذارِ منحرفاً	عن لدغِ جفنينِ بابلينِ
ضرجَ خديهِ ثم جرَّدَ عن	غنجٍ ^(١) أضنى مقلتيهِ سيفينِ
فآهٍ للمدنفِ ^(٢) المعذبِ من	هذينِ حسناً وآهٍ من ذينِ ^(٣)

ويعلو صوت العقل أحياناً ليطنغى على بقية عناصر التجربة ، فتتوارى أمامه العاطفة ، وتتلاشى تحت سطوة سلطانه ، وحينئذٍ يأتي الشعر وقد اختفت منه بقية عناصر التجربة ، مما يجعل منه مجرد نظم بارد ، فهو لا يزيد عن كونه رصفاً للمباني ، ورسماً للمعاني ، جافاً يخلو من حرارة العاطفة ، وانفعال النفس ، وتوهج المشاعر ، فالشاعر فيه قد انشغل بالترتيب والترتيب ؛ الذي ظن أنه لم يسبق إليها ، ومن ثم جاء شعره مصبوغاً بصبغة فكرية ؛ تطنغى على الخيال الذي يبعث في النص الحياة ، ويخلق بالمتلقي في عالم خيالي رحيب ، وهذا ما نراه واضحاً في مدح الشاعر لأخيه " العزيز " إذ يقول :

(١) الغنج : ملاحه العينين ، والغنج في الجارية : تكسر وتدلل . اللسان مادة [غ ن ج] .

(٢) المدنف : الدنف محرقة المرض الملازم ، ودنف المريض كفرح : ثقل . القاموس

مادة [د ن ف] .

(٣) الديوان ص ٤٠٨ .

يا بن معزّ الدّين والإيمان وابن الملوك الشّمّ من عدنان
 والهاشميين العظامِ الشانِ ذوي المعالي وذوي السلطان
 وابن الهدى والبرّ والفرقان كم مرّ بين الضّرْب والطّعان
 من يوم حربٍ لك أرونان^(١) آثرتَ فيه طاعةَ الرّحمان^(٢)

وإذا كانت المشاعر والإحساس الخاص مما يؤثر في القصيدة ، وينطبع فيها ،
 ويلقي بظلاله عليها ، وقد رأينا الشعور المتدفق ، والإحساس الملتهب قد انعكس
 على قصائد الشاعر، فزاد في قوتها ، وارتفعت حرارة عاطفتها - برز ذلك من
 خلال الصورة واللفظ والموسيقى ، وكما رأينا ذلك كله رأينا الشعور البارد ،
 والإحساس العادي ينعكس على القصيدة أيضاً ، ومن ثم نلاحظ فيها ضعف
 العاطفة ، ونلاحظ تلك الألفاظ ذات الدلالات المحدودة ، والتراكيب المكررة التي
 لا تضيف كثيراً إلى عقل السامع ، ولا تتصل بإحساسه ، ومن ذلك ما رأيناه في
 بعض مقدماته الغزلية ، والتي بدا لنا من قراءتها أن الشاعر إنما جاء بها
 لاستكمال شكل فني درج عليه ، ومن هنا نشعر ببرودة العاطفة ، وضعف
 الإحساس ، وكانت القصيدة حينئذ هي مجموعة من الكلمات قد أجاد الشاعر
 رصها وتركيبها ، لكنه لم يصبغها بإحساسه ، ولم يخلع عليها من مشاعره ،
 يقول في مقدمة قصيدة مدح بها أخاه " العزيز " :

جاريةً مرهفةً القدِّ ظالمةً مظلومةً الخدِّ
 كالقمر الطالع لکنها في حسنها كالرّشأ الفرد
 في ليلها البدرُ وفي دِعصها غصنٌ به رُمّانتا نهد

(١) أرونان : يوم صعب شديد - والأرونان : الصوت ، والصعب من الأيام . القاموس

مادة (ر و ن) .

(٢) الديوان ص ٤١٨ .

تَبَسُّمٌ عَنِ بَرَقٍ وَعَنْ لَوْلُؤٍ مُنْظَمٌ أَحْلَى مِنَ الشَّهَدِ (١)

يشبهاها في جمالها بالقمر، وفي حسنها بالطبي، وكما يشبهاها بالبدر يشبه أسنانها باللؤلؤ، وريقها بالشهد، صور مكررة تعارف عليها الشعراء، وألفتها آذان السامعين لا نرى فيها جديدا، ولا يبدو من خلالها إبداع "تميم"، الذي طالما بدا لنا وخاصة في الغزل من شعره.

وليست الصور وحدها التي تعلن عن ضعف التجربة، فالألفاظ المكررة والمضامين المعروفة، كلها تشي برغبة الشاعر في صناعة شعر؛ رأى نفسه ملزماً به لا بإبداع نص يعبر عن مشاعره، ويعلن عن إحساسه، وما رأيناه في مقدمة القصيدة ينطبق تماماً على ما جاء في غرضها الرئيسي، وهو مدح "العزیز بالله"، وفيه لا تشعر بحرارة العاطفة، وصدق الإحساس، وكأن الشاعر قد اضطر إلى نظم تلك الأشعار؛ في وقت لم يكن الصفاء والألفة والمشاعر المتقدمة هي الروابط التي تصله بـ "العزیز"، وفي قراءتنا لحياة الشاعر وقفنا على فترات تاريخية معينة، اختلفت فيها علاقته بأخيه العزیز باختلاف الظروف التاريخية والسياسية؛ مما انعكس على شعره؛ فخرج أحياناً بارداً متكلفاً، وقد أشرنا آنفاً إلى تلك القصيدة، وأكدنا أن مطلعها لا يختلف عن غرضها الرئيس؛ ضعفا وبرود عاطفة، على أننا ننبه بأن مدح الشاعر لأخيه لم يكن كله على هذا النحو، بل على العكس من ذلك تماماً فإن جل مدائحه لـ "العزیز" قد تميزت بحرارة العاطفة، وصدق الإحساس، وتوهج الشعور؛ إذ كانت صلته بأخيه قوية، وعلاقته به وطيدة، فقد عاش في كنفه، وتمتع في ظل سلطانه، حيث لم يبخل عليه بالمال، ولم يرضن عليه بالعطف والمحبة، ولعل ما رأيناه في شعر "تميم" من ضعف في بعض مدائحه لأخيه؛ مرده إلى أن "تميماً" شاعر متمرد على الأعراف والتقاليد كما أسلفنا، ومتمرد على الحياة الرتيبة التي تخضع للقواعد

الملزمة ، ولعل أوضح دليل على ذلك ما لاحظناه في شعره عموماً إذ تبدو في شعره أحياناً نبرة التمرد ، أو الهروب من الواقع ، وهذا ما نراه في قوله :

أديرها عليّ ولا تخافا إلهاً في إداراتها غُفورا^(١)

ولا تنفك نبرة الهروب من الواقع ، والخروج إلى عالم من الخيال تلازمه ، وسيلته في ذلك الخمر يقول :

تعيد الصعب بالنشوات سهلاً وتُغني بالمنى الرجل الفقيرا

وتُكبر نفس شاربها ارتياحا فيحسب أنه أضحي أميرا^(٢)

وفي قصيدة أخرى يزيد الشاعر الأمر وضوحاً فيعلن عن قلقه ورغبته في الهروب من الواقع بإبراز عصيانه وتمرده فيقول :

ولا تطع في نشوةٍ لائماً إنّ قبول اللوم في السكر عار

وهاكها تسلّب لبّ الفتى وحلمه في لطفٍ واختصار^(٣)

تمضي الحياة بـ " تميم " ، فينتابه ما ينتاب الناس من نكبات ، ويمر به ما يمر بهم من أزمت ، لكن الشاعر الرقيق غالباً ما يكون أكثر استجابة لتلك الحوادث ؛ فتتأثر نفسه ، ويهيج خاطره ؛ ومن ثم تتولد لديه مجموعة من التجارب الذاتية ؛ يفرزها الشاعر من خلال شعره ؛ ينبض بها ويعبر عنها .

وتختلف هذه التجارب باختلاف أثرها في نفس الشاعر ؛ واستجابة خاطره لها ، فها هو ذا قد مات أخوه الذي أحبه ؛ فتراه يرثيه بشعر يعبر عن لوعته وحرقتة يقول :

(١) الديوان ص ١٦٨ .

(٢) السابق ص ١٦٨ .

(٣) السابق ص ١٦٩ .

أيَّ حَظِّبِ أرى وأيُّ لِيَالٍ	دهم الناس صَرَفُهَا المحذورُ
كيف لا تَأْتِرُ المصائب في النَفْسِ	س على من هو النفيس الأثير
.....
كيف لم تسقط السماء على الأر	ض ولم تهو شمسُها والبدور
يوم مات الأمير بل يوم مات الصَّ	بر فيه بل يوم مات السرور
يوم بُلَّ الثرى عليه من الدَّمِ	ع وقُدَّتْ على القلوب الصدور
يوم حُطَّتْ عمائم وأذاعت	سِرَّهَا فيه أدُورٌ ^(١) وخُدُورُ
يوم أبكى العيون حتى بكاهُ الـ	أسدُ الوَرْدِ والغزالُ الغرير
وسمعتُ الزفير وهو صُراخ	ورأيتُ الدموع وهي بحور ^(٢)

حالة من الحزن ، وموقف عويل وبكاء ؛ يصوره الشاعر من خلال استفهات متوالية ؛ يمثلها تكرار لفظ الاستفهام : كيف ، وتكرار يبرزه ذكر كلمة يوم ، وألفاظ من مثل " زفير ، دموع ، وصراخ " ، وكلها تمنح القارئ صورة للجو المخيم على الشاعر، والحالة التي استبدت به ، وموقف الحزن الذي يكاد يقتله ، إنه يتساءل فيقول أي خطب هذا الذي ألم بي وبالناس جميعاً ثم يسأل نفسه : كيف لا أحزن على من يستحق الحزن ، ثم تتسع نظرتة ليقول : كيف لا تسقط السماء على الأرض ، وكيف لا تهوى الشمس والبدور يوم مات هذا المحبوب الأثير؛ الذي مات بموته الصبر، وهلك بهلاكه السرور ، ولسنا نزن الشاعر إلا منطلقاً من عاطفة صادقة ؛ تولدت عن تجربة ذاتية ملكت عليه نفسه ، وسيطرت على كيانه .

وإذا كانت قوة العاطفة وصدقها ؛ مبعثها تجربة ذاتية صادقة ؛ فإن موقف

(١) أدور : هي جمع دار جمع صحيح وإن لم يكثر استعماله .

(٢) الديوان ص ١٤٨ .

الشاعر في هذا الميدان (أعنى ميدان الرثاء وفقد الأحبة) يختلف باختلاف المؤثر ؛ فبكاؤه لفقد جارية أحبها ؛ يختلف عن بكائه لأخيه ، وقد تكون العاطفة صادقة في الحالتين ؛ إلا أن درجتها تختلف من موقف إلى آخر، فما هو ذا يقول عن جارية أحبها فاختلفها الموت منه :

من رقة الظرف وحسن الوسام	لله ما بان به يومها
ولذة العيش وطيب المدام	كانت رضا النفس ونيل المنى
وسؤل قلبي من جميع الأنام	ريحان سمعي وسنا مقلتي
لهفاً له في كل عضو سقام	لهفي على ما فات من قربها
قال خلصت من كل عيب وذام	لهفي على تلك الطباع التي
كان سلوى عنه كل اهتمام ^(١)	لهفي وقلّ اللفه مني لمن

ولا أظننا نحتاج إلى كبير من العناء في إثبات الفرق بين الموقفين ؛ فأين الزفرات والعبرات والصراخ والعويل مما تحدث به عن جاريته ؛ من أنها كانت رقيقة ظريفة وسيمة ، وكانت رضا النفس ، ونيل المنى ، ولذة العيش ، وطيب المدام ، ثم يبكي ضياع قربها ، ويبكي طباعها الصافية ، البريئة من كل عيب ، إننا لا نجد ما يدل على لوعة الشاعر وحرفته ؛ سوى التعبير بكلمة لهفي وتكرارها ، وما بعد ذلك هو مجرد ذكر للصفات الطيبة ، والخصال النبيلة التي ميزت هذه الجارية ، ألسنت معي في أن انفعال الشاعر إنما جاء على قدر التجربة ، وهذا لا يعيب تميماً ، بل ربما أضاف إلى شاعريته ، إذ بذلك يعد شعره مقياساً لا يختل لتجاربه وعواطفه .

وهكذا بدا لنا من خلال قراءتنا لإبداع تميم ؛ أن الشاعر صاحب تجارب ذاتية، تولدت من خلال مواقف وحالات ، مر بها فأنجتها في شعره ، وعبر عنها بأسلوب يتناسب مع الموقف ، ويتوافق مع حالته الشعورية .

المبحث الثاني

التجربة الإنسانية

تتسع رؤية الشاعر فتتعدى حدود الذات ؛ لترتاد آفاقاً أرحب ، ومن ثم يناقش قضايا إنسانية ؛ تكونت رؤيته لها من خلال خبرات وتجارب ، وإن كانت قليلة إلا إنها ناضجة ، وهو ما يدعونا إلى القول بأن التجربة الإنسانية عند " تميم " قليلة محدودة ؛ إذا قيست بغيرها من التجارب ، ومرد ذلك إلى أن " تميماً " قد عاش حياة قصيرة من ناحية ، كما كان بحكم ظروف خاصة منكفئاً على الذات ، منغمساً في الملمات من ناحية أخرى ، لكن شعر تميم على كل حال لم يخل من هذه التجارب ، بل رأيناها ماثوثة في شعره ، ترتبط غالباً بمواقف حزن يعيشها الشاعر، أو لحظة رجوع إلى الله والنفس ؛ يثوب فيها إلى رشده ، ويصحو فيها من غمرته ، ومن ثم تتعمق نظرته ، وتتسع رؤيته ؛ لتشمل الناس والكون والحياة ، ويعالج من خلال تلك الرؤية قضية ؛ طالما شغلت الناس ، وانشغلوا عنها ، وهي قضية ما بعد الموت ، وعن طريق خبرات الشاعر وتجاربه المتراكمة ؛ يعالج هذه القضية ويناقشها ، مثبتاً صحة ما يقول مستخدماً أدوات فنية ، ووسائل تعبيرية ، تبرز صدق تجربته يقول :

يا عجباً للناس كيف اغتدوا في غفلةٍ عمّا وراء الممات
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن لهم على إحدى المعاصي ثبات
من شكّ في الله فذاك الذي أصيب في تمييزه بالشّاتات
يُحييهم بعد البلى مثل ما أخرجهم من عدمٍ للحياة^(١)

إنه يعجب من غفلة الناس عما بعد الموت، ويعجب من ثباتهم على المعاصي، ويعلقها على عدم المحاسبة للنفس ، ثم كيف يشك الناس في وجود ربهم ؛ لقد

عدموا التمييز الذي يعينهم على التفريق بين الحق والباطل ، ثم يدلل على صحة قضيته بأن الذي أوجدتهم من العدم ؛ قادر على بعثهم بعد الموت .
إن هذه الرؤية للكون والناس ؛ قد احتاجت من الشاعر إلى مناقشة منطقية ؛ تستخدم البرهان والدليل والنتيجة ، المترتبة على المقدمات ، وأنت ترى ذلك في قوله :

لو حاسبوا أنفسهم لم يكن لهم على إحدى المعاصي ثبات

ثم في قوله :

يُحْيِيهِمْ بَعْدَ الْبَلَى مِثْلَ مَا أَخْرَجَهُمْ مِنْ عَدَمِ الْحَيَاةِ

ولأن الشاعر يعالج حقيقة كونية لم يحتج إلى الخيال ؛ المرتكز على التصوير؛ لذا كانت الأدلة النقلية ، والحجاج المنطقي ؛ هو الأنسب لعرض تلك الحقائق ، وتصوير مثل هذه التجارب .

وللشاعر فلسفته في الحياة والموت ، فتراه بعد أن ناقش قضية البعث يناقش قضية الموت نفسه ، ويضعها في إطار نظرية محددة مفادها : أن الموت نهاية كل حي ، ملكا كان أم أميراً وطالما كان الأمر كذلك ؛ فإن طول الحياة لا قيمة لها، بل هو شيء مستهجن حقير ، وتبدو هذه النظرية واضحة جلية في قوله :

كُلُّ حَيٍّ إِلَى الْفَنَاءِ يَصِيرُ وَاللَّيَالِي تَعْلَةٌ وَغُرُورٌ

وإلى الله يرجع الملكُ والمُلُكُ ويفضي الأميرُ والمأمور

وإذا لم يكن من الموت بدُّ فطويل الحياة نَزْرٌ حقير^(١)

ويلقي الشاعر بخبراته وتجاربه في شكل حكم شعرية ؛ تظهر قدرته على استيعاب الكون والناس ، وفهمه لمجريات الحياة ، وتصاريف الزمان ، غير أن الشاعر (في مثل هذا الموقف) يبدو كواعظ ؛ يرسل عظاته إرسالاً دون أن يحملها على أجنحة الخيال ،

(١) الديوان ص ١٤٧ .

فيرتفع بنظرياته تلك إلى مستوى الشعر الإنساني المعبر عن خبرات وتجارب حياتية خصبة ، والمصحوب بوسائل فنية تعمل على إشراك المتلقي في الرؤية ، وتحويله من مستقبل إلى مرسل ، وهذا أمر معتبر في النقد الأدبي والبلاغة ؛ إذ هما [يقدران ذلك جداً ، فليس سهلاً أن يأخذ الشاعر بيد متلقي شعره ، وينتقل به من موقف المستقبل إلى المرسل ، إنه بذلك يجعله إيجابياً مرتين مرة بالتلقي ومرة بالخلق الجزئي] ^(١) ولا نظن أن " تميم " قد نجح في ذلك إلى حد كبير ، فقد كان للأسلوب الوعظي دوره في إعاقته عن تحقيق ذلك ، فجاء شعره وإن حمل رؤية إنسانية وأفكاراً عامة إلا أنه لم يشرك سامعه أو متلقيه في تلك الرؤية ، ولم يحدث ما يمكن أن يطلق عليه التفاعل بين المبدع والمتلقي ، فهذا هو ذا يقول :

والمجدُ للنفسِ الأبيّة	الحُرُّ لا يأتيَ الدنيّة
حسنُ السريرةِ والطويّة	ومن المكارمِ والتقى
ع معايبَ النفسِ السخيّة	والمرءُ يسترُ بالسخا
ن إذا تعاظمت الخطيّة	والحلمُ أعظمُ ما يكو
لأخي النباهةِ والرؤيّة	والعقلُ أجملُ زينة
ع وعادةِ النفسِ الرديّة	والظلمُ من لؤمِ الطبا
ر وبالدمارِ وبالمنيّة ^(٢)	والبغى يؤذِنُ بالبوا

إن الشاعر يبدو في صورة المرشد ؛ الذي يصب إرشاداته ، ويلقي بعظاته ، فلا نجد سامعه إلا مستقبلاً ثابتاً ، وليس له حراك ، ومعلوم أن القضايا الإنسانية تستوجب من الشاعر قدرة على إشراك قارئه أو سامعه ، والأخذ بيده ودفعه في أتون القضية محل المناقشة ، لكننا على كل حال لا نستطيع أن ننكر أن للشاعر رؤية ؛ تتسع أحياناً لتشمل

(١) عبده عبد العزيز قلقلية : التجربة الشعرية عند ابن المقرب مضمونها وبنائها

الفني ص ٩٩ .

(٢) الديوان ص ٤٥٥ .

الكون والحياة والناس ، وفي شعره وجدنا نماذج عرضنا بعضاً منها ، وأثرنا الاقتصار عليها بوصفها دليلاً على قدرة الشاعر ؛ على استيعاب التجارب الإنسانية ، وتخليقها ، وإبرازها في شكل إبداعي يعبر عنها .

المبحث الثالث

التجربة النفسية

تمور نفس الشاعر بمشاعر وأحاسيس مختلفة ؛ تتولد على أثرها حالات نفسية متباينة ، يفرزها إبداع الشاعر، ومن ثم نرى قصائد هي في حقيقتها صدى لتجارب نفسية عميقة ، وتتضح من خلالها أحد الأبعاد الهامة والرئيسية لشخصية الشاعر ، و" تميم " في إبداعه الشعري يعبر عن حالات نفسية مختلفة ، ومشاعر داخلية متباينة ، تبدو من خلالها الصورة الداخلية ، والبعد النفسي له ، فها هو ذا يعبر عن ألم وحزن خالج نفسه ؛ حين نادى المنادي معلناً رحيل الأحبة ، وأن الوقت قد آذن بالفراق ، وفي مثل هذا النوع من التجارب ؛ ترتفع حرارة العاطفة ويشتد ، أوارها ، وهو ما رأيناه عند " تميم " حين يقول :

وما أمُّ خَشْفٍ^(١) ظلَّ يوماً وليلةً ببلقعة^(٢) يبئداءَ ظمآنَ صادياً
تَهيمُ فلا تَدري إلى أين تَنْتهي مولهةً حيرى تجوبُ الفياضيا^(٣)
أَصْرَ بها حرُّ الهجيرِ فلمْ تجدْ لغلتها من باردِ الماءِ شافيا
فلما دنت من خَشْفِها انعطفت له فألفته ملهوفَ الجوانحِ طاويا
بأوجع مني يومَ شدوا رحالهم ونادى منادي الحي أن لا تلاقيا^(٤)
فأم خشف التي ظلت يوماً وليلةً بصحراء خالية ، ينهشها العطش ، وهي

(١) أم خشف : النظية . جلال الدين السيوطي ، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، شرحه : محمد أحمد جاد المولى بك ، و محمد الفضل إبراهيم ، و علي محمد البجاوي ، ج ١ ص ٥١٨ ، ط ٣ ، دار التراث القاهرة .

(٢) البلقعة : الأرض القفر - القاموس ج ٣ ص ٧ مادة بلقع .

(٣) الفياضيا : المكان المستوي أو المفازة لا ماء فيها . القاموس ج ٣ ص ١٧٦ مادة فيف .

(٤) الديوان ص ٤٦٢ .

حيري تجوب الفيافي مولها وتائها ؛ كأنها تبحث عن شيء ، وذلك الشيء هو وليدها الذي ما إن عثرت عليه حتى دنت منه ، وإذا هو جائع لا يجد ما يسد رمقه ، وما ظنك بأمر حالتها تلك ؟ إن الأم يعتصرها على ابنها ، والعطش يكاد يقتلها ، إن ما تمر به تلك الأم ، وما تحمله من أوجاع لا يساوي شيئاً أمام ما يحمله " تميم " من ألم ووجع ؛ عند سماعه بفراق من أحب ، إنه تعبير قوي عن التجربة ، اتسعت فيه مخيلة الشاعر؛ فتخيل تلك الحالة التي عليها أم خشف هذه ، فصورها فيما يشبه القصة القصيرة ذات الحدث البسيط ، وقد نجح في استغلال هذه القصة في التعبير عن مشاعره هو ؛ إذ القصة لم تكن مقصودة لذاتها ، ومع ذلك فقد أجاد تصوير الظبية من الخارج والداخل ، ونجح بذلك في تصوير الحالة النفسية لها ، وربطها ربطاً جيداً بحالته النفسية وشعوره المحقق ، وليبلور الشاعر تجربته قد استعان بالمجاز؛ الذي يمثله قوله أضرب بها " حر الهجير - ألفته ملهوف ... " .

هذا بالإضافة إلى ألفاظ غنية بالدلالات والإيحاءات ؛ التي تخدم الموقف ، وتصوره أجمل تصوير ، وهذا ما ينعكس بدوره على التجربة ومن تلك الألفاظ التي تشير إلى دقة الشاعر في التعبير عن تجربته : " ظمأن - صاديا - مولهة - حيري - حر الهجير - ملهوف الجوانح ، وغيرها " ، يضاف إلى ذلك موسيقى داخلية عمادها تناسق العبارة ، وتماسك الجملة ، واتصال بعضها ببعض ، وأخرى خارجية يمثلها اختيار الشاعر للبحر الذي صاغ فيه قصيدته ، وهو بحر الطويل الذي يضم نغمتين مختلفتين فهو على " فعولن مفاعلين " وكأن الشاعر أراد أن يقول : إن حزني أمدّه طويل ، وهو لا يكاد ينتهي ، على أن براعة الشاعر قد اقتصر على رسم تفاصيل الصورة ، وتناسق أجزائها ، وتوليد التجربة النفسية ، وإبرازها كاملة من خلالها ، أما الصورة في عمومها فهي ليست مبتكرة ، وليست وليدة أفكار الشاعر؛ فقد رأينا ظللاً لها عند شعراء سابقين عليه ، فالأعشى يقول مثلاً :

وَمَا أَمْ حَشْفٍ جَابَةٌ الْقَرْنَ فَاقِدٌ عَلَى جَانِبِي تَتَلَيْثُ تَبْغِي غَزَالَهَا (١)

وواضح أن وقت الفراق ، وفقد الأحبة ؛ قد كان له أثر في تحليق حالات نفسية لدى الشاعر، فنراه يلح في تصوير هذه اللحظات ؛ ليبرز من خلالها ألمه ومعاناته ، فها هو ذا يعاني لوعة الفراق ، فيستبد به الشوق ، وهو مع ذلك لا يستطيع إعلانه ، يغرد قمري على غصن ؛ فينكأ جرحه ، ويهيج مشاعر الحب الكامنة بين جوانحه ، فلا يجد مهرباً من ذلك إلا في الحديث إلى الحمامة ، يبثها ألمه وأشجانه ، ويخلع عليها مشاعره وأحاسيسه ، حتى ليتخيل أن الحمام إنما ينوح ؛ لأن مصابه كمصاب الشاعر ، فكلاهما محب ، صدع البين شمله ، وكلاهما أصابه الضيم لفراق الأحبة :

وَأِنْ نَاحَ قُمْرِيٌّ بَغْصَنِ بِشَامَةٍ (٢)	وغرد في أعلى الأراك (٣) حَمَامٌ
أَهَاجُ لَكَ التَّذْكَارَ شَوْقًا كَأَنَّمَا	له بين أحناء الضلوع ضرام
خَلِيلِي هَلْ بَعْدَ الْفِرَاقِ تَوَاصَلْ	وهل بعد توديع الحبيب مُقَامٌ
دَهْنَتِي النَّوَى حَتَّى كَأَنَّ أَحْبَبْتِي	على القربِ مني والذنوّ حرام
وَمِمَّا اسْتَهَامَ الْقَلْبَ وَهُوَ مَصْدَعٌ	وأوهى جُمانَ الدمع وهو سِجَامٌ (٤)
مَطْوَقَةٌ وَرِقَاءٌ تَنْدُبُ شَجْوَهَا	وتسهر فيه الليل وهو تَمَامٌ

(١) ديوان الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ص ٣٣٠ تقديم وشرح د/ محمد أحمد قاسم -

المكتب الإسلامي - الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .

(٢) البشام : شجر عطر الرائحة ، طيب الطعم ، ورقه يسود الشعر ، ويستاك بقضبانته .

القاموس مادة (ب ش م) .

(٣) الأراك : قطعة من الأرض ، والأراك بالكسر : شجر من الحمض يستاك به . القاموس

مادة (أ ر ك) .

(٤) سجام : سجم الدمع سجوماً وسجاماً ككتاب ، وسجمته العين : قطر دمعها وسال قليلاً

أو كثيراً ، والسجم بالتحريك : الماء والدمع . القاموس مادة (س ج م) .

تنوح بلا دمع وللحزن آية على نوحها مشهورة وغرام
 ألا يا حمام الأيك مالك والهأ كأنك ممّن أسكرته مُدام
 كِلانا محبّ صدّع البين شَمَله وكل مُحبّ بالفراق يضام^(١)

وحديث الشاعر إلى ذلك القمري ؛ الذي طالما عرف بالألفة والمحبة والبكاء عند الفراق ؛ يوحي بصدق الشاعر في تجربته ، هذا بالإضافة إلى ما استخدمه من ألفاظ معبرة ، وموسيقى موحية ومضامين وإن لم تكن جديدة إلا أنها تشي بمشاعره ، وتعبر عن أحاسيسه ، وتعلن عن حالة من الضيق استبدت بالشاعر؛ فأراد أن يتخفف منها من خلال حديث إلى ذلك القمري؛ الذي يبته ألمه وأحزانه ، وكأن في تبادل الحديث بينهم ما يلطف الجو المحيط بالشاعر، ويخفف من حالة الحزن التي تنتابه ، وما ذلك إلا أن الحالة تلك هي نفس الحالة التي يعانيتها ذلك القمري ، فالشاعر قد لمس ذلك منه ، ومن ثم عاش معه حالة من التوحد ، وهو أسلوب رأيناه في شعر " تميم " ، وأشرنا إليه سابقاً وأوضحنا أن له نظائر متعددة في الشعر العربي القديم ، غير أن هذا الأسلوب يؤدي دوراً في إثراء التجربة عموماً ، والتجربة النفسية خصوصاً ، وإبرازها وتوضيح معالمها .

يعاني الشاعر شدة الأيام وقسوتها ، ويشعر بثقلها على صدره ، وهو الذي طالما تقلب في أعطاف النعيم ؛ بين جنبات حياة رخية ناعمة ؛ لذلك لم يتحمل هذه القسوة ، وتلك الشدة ، ومن ثم تضيق نفسه بها ، ويرتفع صوته معلناً غضبه وحنقه عليها .

أظهر أم أخفي الذي بي من السقم وكم أذفع الأيام بالصبر والحلم
 أعلل نفسي بالأمانى تجلداً وأوهمها أن النزاهة في العدم
 صبرت على الأحداث حتى أذبتني وحتى انتهت سكينهن إلى العظم

(١) الديوان ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

ولم يلق مخلوقٌ من الدهرٍ مثل ما لقيتُ من الأرزاءِ والجورِ في الحكم
فما عنفتُ غيري الخطوبِ بجورها ولا ظلمتُ أحداثها أحداً ظلمي^(١)

وواضح أن هذه القسوة وتلك الشدة قد أتته من قبل من يحب ، ومن ناحية من أخلص إليه الود ، وأكثر من مدحه حتى استغرق ذلك المدح النصيب الوافر من شعره ، إنه أخوه الخليفة " العزيز بالله " ، لذلك شعر بالمرارة والحزن الشديد وضيق النفس ، وما ذلك إلا لأن ظلم ذوي القربة أشد مضاضة ؛ على النفس من وقع الحسام ؛ لذلك مثل هذا الحديث تجربة صادقة عاشها الشاعر، فأفرزها من خلال شعر صادق معبر ، توحى كلماته وصوره وموسيقاه بهذه التجربة ، يقول مخاطباً أخاه : -

أناديك أم أشكو إليك ظلامتي أم أشكوك أم أكني عن الأمر أم أسمى
أتعدو ظنوني في معاليك ظلماً^(٢) وتصيحُ آمالي مبددة النظم
وأشربُ إذ أصبحتُ ضيفك من دمي وآكلُ إذ أخلصتُ ودك من لحمي
وأبخسُ حظاً أنت كنت ابتدأته وأنت أحق الناس بالعدل في القسم
إذا كنت أنت الحاكم المرتضى به فما لك تغدو دون حكمك لي خصمي^(٣)

ويرجع الشاعر أحياناً إلى ذات نفسه ، فنقرأ له شعراً في مجال قد لا يكون مما يبرز حالة الشاعر النفسية ، ويشف عن شعوره الشخصي ، ففي وصفه لمجلس الخمر، وليلة قضاها يعاقر الكأس ، نلمح من خلالها إشراق نفسه وصفاء روحه ، وما ينتابه من شعور بالسرور والنشوة ؛ اللذين يعلنان عن حياة لينة ،

(١) الديوان ص ٤٠٠ .

(٢) الظلع : الضعف أو العيب ، والظالع المتهم أو المائل ، والمعنى : أصبح متهماً في

هواك . القاموس مادة (ظ ل ع) .

(٣) الديوان ص ٤٠٠ .

وعيش هنيء فهو يقول :

شربنا على نوح المطوقة الورق
معتقة أفنى الزمان وجودها
أردية الروض المفوفة البق
فجاءت كفوت اللحظ أرقفة العشق
كأن السحاب الغرأ أصبحن أكوساً
فبتنا نحث الكأس حثاً وإتنا
لنا وكانّ الراح فيها سنا البرق
لنشربها بالحث صرفا ويستسقي
وأقبل رايات الصباح من الشرق
إلى أن رأيتُ النجم وهو مُغرب
كأنّ سواد الليل والصبح طالع
بقايا مجال الكحل في الأعين الزرق^(١)

وفي تلك المقطوعة نرى الشاعر وقد عاد إلى ذات نفسه وقلبه ، فتجلى شعره ليكون أعمق من حواس ظاهرة ، وطلاء مصطنع ، ومن ثم أمكننا أن نلمح وراء الحواس شعوراً حياً ، ووجداناً تعود إليه المحسنات ، وهو ما رأيناه في القصيدة من صور بارعة ، وتشبيهات تحمل قدراً من الجدة والطرافة وهو عرض يشبه رجوع الأغذية إلى الدم ، ونفحات الزهر إلى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة الجوهرية^(٢) .

وقد تمتلئ نفس الشاعر غيظاً ، ويمور صدره بحنق شديد ، فيخرج ذلك كله

في شكل إبداع أدبي ، نرى ذلك في قصيدة يهجو فيها كاتباً فيقول :

إذا لم تعرفِ الخيرا فتأتيه ولا الشررا
ولم تقصدِ بأفعالِ لك لا نفعاً ولا ضرراً
ولم يعدلْ بك التمي يُز لا يُمئى ولا يُسرى
وأنت السيفُ لا يفري إذا ما لم به يفراً

(١) الديوان ص ٢٩٦ .

(٢) انظر : محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ص ٣٦٨ .

فما حقك أن تسمي _____ مع لا ذمّاً ولا شكراً (١)

ويصب الشاعر جام غضبه على ذلك الكاتب ، فيصفه بأوصاف سيئة ، ويشبهه بتشبيهات تظهر معايبه ، وتبدي مساوئه ، وينتهي به القول بالدعاء عليه ، وهو دعاء يعلن عن نفس ساخطة ، وقلب غضبان يقول :

فلا أبقي لك اللهُ بقاءً لا ولا عمراً

فما أولى بك الموتَ وما أولى بك القبراً (٢)

وهكذا بدأ لنا من خلال شعر " تميم " حالات نفسية متباينة ، ومواقف شعورية مختلفة ؛ أبرزت البعد النفسي لشخصية الشاعر، الذي استطاع أن يجليه من خلال إبداع فني متميز، وإنتاج شعري يشهد لصاحبه بالجودة والبراعة .

(١) الديوان ص ٢٣٤ .

(٢) الديوان ص ٢٣٥ .

المبحث الرابع

التجربة التاريخية

يلج الشاعر إلى التاريخ ، فيستقي منه تجاربه (وذلك لما هو معلوم من أن التاريخ معين لا ينضب لتجارب البشر أفراداً وأمماً . وباستطاعة الأديب أو الشاعر أن يتخير من التاريخ ما شاء من تجارب يجليها) (١) .

ذلك بأن يبدو الشاعر لقارئه وقد زج بنفسه في أعماقه ، وألقي به في خضم أمواجه ، ومن ثم نرى الشاعر وقد تشربت روحه التاريخ ؛ فتفاعل معه وانفعل به ، وبخاصة إذا كان ذلك التاريخ يتعلق بالشاعر من حيث نسبه وعقيدته وينبغي على الشاعر في معالجته للتجربة التاريخية أن (يخرجها من الخصوص إلى العموم ، فهو لا يصور تجربة هذا الرجل أو ذاك كما وقعت في التاريخ ، وإنما يصور تجربة كل رجل ، تحيط به نفس الظروف التي أحاطت بهذا الرجل التاريخي أو ذاك ، بحيث تصبح قصة إنسانية عامة ، يستطيع كل فرد أن يتصور فيها نفسه ، أو نفس غيره إذا اتفقت الملابسات ، وذلك دون التقيد بجزئيات التاريخ ، والاكتماء بالخطوط العامة ، أو القيم الإنسانية الثابتة) (٢) .

وسوف تكشف دراستنا للتجربة التاريخية عند " تميم " مدى مطابقتها لتلك المقاييس التي وضعها النقد الحديث ، فـ " تميم " يقص علينا في أسلوب المؤرخ قصة بني هاشم ، وما كان لهم من حديث مع بني أمية ، وفي هذا القص الشعري نرى الشاعر وقد استخدم الأسلوب المباشر؛ الذي قد يناسب التاريخ ، والخالي من الصور والخيال تقريباً ؛ إذ الشاعر حينئذٍ قد شغل بالسرد التاريخي ، وحكاية الأحداث المتلاحقة ، التي لا تدع له مجالاً للتصوير ، وإعمال الخيال وهذا ما يوضحه شعره في " الحسين " - رضي الله عنه - ، وموقفه في كربلاء ، يقول :

(١) د / محمد مندور - الأدب ومذاهبه ص-١٣ نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) السابق ، نفس الصفحة.

فِي كَرَبْلَاءَ يَجُودُ بِالنَّـ	نَفْسِ الْمَعْطَشَةِ الصَّدِيهِ
حَتَّى انْتَهَى لَسِيوْفِهِمْ	وَسِيْهَامِهِمْ فِيهَا دَرِيْهِ
أَعَزَزَ عَلَيَّ مَجَالَهُ	ظَمَانَ فِي تَلِكِ الثَّنِيْهِ
وَبَنُو أَبِيهِ حَوَّلَهُ	بَيْنَ الْعُدَاةِ النَّاصِبِيْهِ
قَدْ جَرَّدُوا بِيضَ الْمَنَا	صَلِّ وَاسْتَعْدُوا لِلْمَنِيْهِ
حَتَّى تَفَانُوا حَوْلَهُ	وَسُقُوا الْمَنِيَّةَ بِالسَّوِيْهِ
وَالْفَاسِقُ ابْنُ زِيَادٍ آل	مَلْعُونٌ يَطْلُبُهُمْ بِنِيْهِ (١)

وهكذا رأينا الشاعر وقد استخدم الأسلوب المباشر ، الذي يكاد يبعد بالقصيدة عن الشعر، ويقترّب بها من أسلوب السرد المباشر، ولا يشفع للشاعر ما جاء به من صور، وما عبر به من ألفاظ تناسب الموقف ، إذ إن حرارة العاطفة في تلك المواقف تمنح الشاعر المتمكن ؛ قدرة على التحليق بخياله ، بحيث ينقل لقارئه صورة أكثر شاعرية من تلك اللوحة التاريخية ؛ التي حاول رسمها . غير أنه (وفي نفس القصيدة) ترتفع وتيرة الانفعال بالتجربة ، وتزداد العاطفة قوة وتوهجاً بفعل العقيدة ، وذلك عندما يكتمل مشهد أبناء " الحسين " ، وما تعرضوا له من قتل وإهانة ، وأسر للنساء ، وتمثيل بجسد " الحسين " من قبل الحاكم وأعدائه ، غير أن الشاعر لم يستفد من هذا الموقف كثيراً ، فيسخر صدق التجربة ، وحرارة الموقف لخدمة النص ؛ لذلك لم نر للخيال والتصوير دوره الذي كان يمكن أن يقوم به في مثل هذا الموقف ، وفي مثل تلك التجربة الصادقة المتصلة بوجدان الشاعر، والمعبرة عن عقيدته ، ولكننا رأينا انفعالات في صورة ندب وسب وشتم ، وكأن الشاعر هنا قد تخلي عن شاعريته ليتحول إلى شيء آخر ، انظر إليه يقول معلقاً على موقف بني أمية من " الحسين " وبنيه :

إني وآبائي وقو	مي والكرام الأحمدية
ذاقوا الردى وتخرموا	بيد الدعي ابن الدعيه
بيد الغوي ابن الغوي	ي ابن الغوي ابن الغويه
الناقضين الناكثيين	من على الشريعة والبريه
البائعين صوابهم	في كل أمر بالخطيه (١)

ولنا أن نتساءل ما الذي أفاده صدق التجربة للقصيدة ، وما الذي أضافته قوة العاطفة إلى النص ، ويمكن القول أن الشاعر وإن لم يفد من قوة عاطفته وصدق تجربته في رفع وتيرة الخيال ؛ إلا أنه قد أفاد من ذلك كله في موسيقى النص ، وهذه الموسيقى المعبرة وتلك الألفاظ الواضحة ؛ إنما تعبر عن وضوح التجربة وجلانها ، هذا بالإضافة إلى ما في الألفاظ من دلالات توحى بهذه العاطفة المتوهجة ، وما في المعاني من تعبير عما انتاب الشاعر من لوعة وأسى عند تذكره لهذه الحوادث ، ومرور تلك التجربة بخاطره ووجدانه .

وقد يعتمد الشاعر على التاريخ ، ولكنه لم ينفعل بالتجربة فتأتي الأحداث التاريخية وقد سردت سرداً ، فلا ترى لموهبة الشاعر أثراً في صياغة التجربة وتخليقها ، وتصوير مشاعره وأحاسيسه من خلالها ، وحينئذ تأتي تلك التجربة جافة ، تخلو من نبض الحياة ، وحرارة المشاعر ، فها هو ذا يتحدث عن أجداده العلويين ، وما فعله معهم بنو العباس يقول :

شردنم جعفرأ وشيعته	بغير ذنب جنوا ولا افتعلوا
والحسنيون طالما تفلوا	بحد أسيافكم وما قتلوا
ثم قتلتم موسى الرضا خدعاً	لأمكم بعد قتله الهبل (٢)

(١) الديوان ص ٤٥٩ .

(٢) الهبل : الثكل ، وهو فقد الابن ، وهبلته أمه : ثكلته . القاموس مادة (ه ب ل) .

عَدْرًا وَحِقْدًا طَوَيْتُمُوهُ لَنَا كَذَا يِعَادِي الْمَوَالِي الْخَوْلُ (١)
 وَيَحَ بِنِي عَمِّ أَحْمَدٍ خَسِرُوا وَعِنْدَهُ دُونَ هَاشِمٍ خَذَلُوا
 دِمَاءَ أَبْنَاءِ أَحْمَدٍ شَرِبُوا وَلَحْمَ أَبْنَاءِ بِنْتِهِ أَكَلُوا (٢)

إنه مجرد نظم لأحداث ، وسرد لوقائع ، فهو أقرب إلى النظم منه إلى الشعر؛ إذ لا تجد فيه روحا ولا حياة ولا صدي لشعور متوهج ، وعاطفة حرة مع أن الموقف يقتضي ذلك كله ، غير أن الشاعر لم يسخر هذا الموقف لصياغة تجربة صادقة ، وتصوير عاطفة ملتهبة .

وبناءً على ما سبق يمكن القول بأن شاعرنا قد استوحى بعض تجاربه من التاريخ ، غير أننا لا نجد فيها تلك المقاييس التي وضعها النقد الأدبي الحديث ، ونحن نتفهم ذلك إذ وضعنا في الحسبان ظروفًا تاريخية واجتماعية وثقافية عاشها الشاعر، فهو قد عالج تلك التجارب من خلال كل هذه الظروف التي ذكرناها ، ومن ثم جاءت هذه المعالجة مناسبة لظروف عصر الشاعر وثقافته ومجتمعه .

(١) الخول : ما أعطى الله سبحانه وتعالى الإنسان من النعم ، وخول الرجل الذي يملك

أمورهم ، وخولك الله مالاً أي : ملكك ، والخوال الرعاء : الحافظ للمال .

اللسان مادة [خ و ل] .

(٢) الديوان ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

المبحث الخامس

التجربة الاجتماعية

إن دراستنا لحياة الشاعر تجعلنا نقطع بأنه قد كان شاعراً اجتماعياً بطبعه ، قد تخلق عن حياة القصور، ومظاهر الأبهة والعظمة التي تجعله يعيش بعيداً عن الناس ، ولكنه انطلق في رحاب الحياة يخالط أهلها ، ويعيش مشكلاتهم ، وذهب يعب من متعها وملذاتها ، ومن ثم رصد ذلك كله في شعره ، فرأينا فيه مواقف ومشاهد وأحداثاً ؛ شكلت مادة حية لتجربته ، وليس ذلك بمستغرب على شاعر نافذ البصيرة ، يعي ما حوله ويسجله ، ويضيف إليه من خياله وشاعريته ، ولا شك أن (كل ما في الحياة من أحداث ومواقف ومشاهد صالح لأن يكون تجربة شعرية ، أو بلغة النقد العربي القديم : موضوعاً شعرياً ، وكل ما نخلع عليه من إحساسنا ، ونفيض عليه من خيالنا ومخاوفنا - هو شعر ، وموضع للشعر ، لأنه حياة وموضوع للحياة)^(١) . فالشاعر الحق هو من لديه القدرة على رصد واقعه ، فيهتم حينئذٍ بتسجيل تفاصيل الصورة ، وإبراز ملامحها واستقصاء أجزائها ، وتلك هي التجربة الاجتماعية ، هذه التجربة هي التي يستقيها الشاعر مما يعيشه في واقعه ، ويلاحظه في مجتمعه غير أنه يصبغها بإحساسه ، ويخلع عليها من مشاعره ، ويعمل فيها فكره وخياله ، فالشاعر الموهوب (قد يستطيع بخياله أن يتصور الواقع ، وأن يجسده على نحو يبرز الحقيقة في قوتها)^(٢) . وشاعرنا من أولئك الموهوبين الذين صوروا واقعهم ، فأضافوا إليه من إحساسهم ، واستطاعوا بخيالهم تجسيد حقائقه ، ورصد تفاصيله فقد رأينا في شعره كثيراً من هذه الصور الاجتماعية ؛ التي يرصدها بدقة وعناية ؛ ذلك أنه غالباً ما يكون جزءاً من أجزاء الصورة ، وعنصراً من عناصر المشهد الذي يعني بتصويره ،

(١) د/ محمد السعدي فرهود : قضايا النقد الأدبي الحديث ص ٩٤ .

(٢) د / محمد مندور : الأدب ومذاهبه ص ١٥ .

لذلك نراه وقد استغرقت التجربة مشاعره ، وملكت عليه إحساسه ، واستولت على كيانه فها هو ذا يصف ليلة قضاها في حانة أو خمارة ، وفي هذا المشهد نرى المغنية التي أغرم بجمالها ؛ فأفاض في تصويرها ، كما نرى بيت الخمر والساقى والشراب والندماء ، وما قد يقع منهم من أفعال ، ولا ينسى الشاعر تصوير الجو المحيط بذلك كله ، إنه مشهد غني بالتفاصيل ، عامر بالذكريات التي استقاها الشاعر من مخزونه ، وحصلها من خلال معاشته للتجربة ، وملاحظته لتفاصيلها ، نرى ذلك في القصيدة التي يقول فيها :

وشادنٍ شَرَطِ الصَّبَا مُرْهَفٍ	قُرَّةَ عَيْنِي مِنْ تَمَنَّاهُ
كأنما الحسنُ رأى وجهه	إليه محتاجاً فأغناه
فانتثرت بالغنْجِ أفاظُه	وانكسرت باللحْظِ جفناه
ولاح برقُ الثغرِ من مَبْسِمٍ	المسك والقهوةُ مَجَنَاه
وبتَلَّ (١) الأردافَ فاستثقلت	وأرْهف الخصرَ وأضناه (٢)
زُرْنَا به منزلَ خَمَّارَةٍ	والليلِ في صِبْغِ بريّاه
وقد علا الأفقُ هلالٌ بدا	كعطفة الحاجبِ مَحْنَاه (٣)

وينطلق من وصف الجو المحيط إلى تصوير صاحب الخمر، ووصف الشراب ،

وينتقل إلى حوار بينه وبين الخمار حيث يسومونه على ثمنها يقول :

حتى إذا الخمارُ أصغت إلي	صِحَابنا في المشي أذناه
قام إلينا عَجلاً شاغلاً	بالرَّاحِ يُمنَاه ويسراه

(١) بتل : الشيء وبتله : ميزه عن غيره ، والمتبتل : المتميز ، والبتول المنقطع عن

غيره . القاموس مادة (ب ت ل) .

(٢) الديوان ص ٢٢ .

(٣) السابق نفسه .

فاستلّ من إبريقه قهوةً أشرق منها ليلٌ مَعْنَاهُ
 حتى إذا سُمّنَاهُ في بيعها قَطَّبَ غِيظاً حينَ سُمّنَاهُ
 وقال ما استام بها ماجدٌ قَبْلَكُمْ فيما عَلِمْنَاهُ
 دَوْنَكُمْوَهَا وَزِنُوا مِثْلَهَا دُرّاً وَتِيْرًا وَوزنّاهُ
 فغاب عن الحاظنا ساعةً ثُمّتَ وافانا ودنّاه (١) (٢)

وبعد أن يصور الخمر وصاحبها وساقياها يتحدث عن حاله وندمائه بعد شربها يقول :

إذا أشاب الصبحُ رأسَ الدجى وهزّنا الساقى أجَبْنَاهُ
 نحبو إذا نادى إليه كما يَحْبُو إلى الوالدِ أبنَاهُ
 وإنّ بَدَا من صاحبٍ بعضُ ما يأتي به السُّكْرُ عَدْرَنَاهُ (٣)

وواضح أن الشاعر قد أراد أن يضع أمام قارئه صورة متكاملة ، ومشهدا بكل تفاصيله لهذه الواقعة التي عاشها ، والتي يبدو من خلالها أن الشاعر تغشاه حالة من الحنين ؛ والعودة إلى تلك الأيام التي يراها جميلة ممتعة ، يشير إلى ذلك قوله :

سَقِيًّا وَرَعِيًّا لزمانٍ مَضَى به مَعَدُّ (٤) فَعَدِمْنَاهُ (٥)

ويغرق الشاعر في واقعيته حين يصور لحظات عاشها وأحداثا عاينها وعانها، فيسوق ذلك في إطار قصص تكاد تكتمل عناصره ، فنرى فيه الحدث

(١) دنّاه : الدن زق الخمر .

(٢) الديوان ص ٢٣ .

(٣) السابق نفسه .

(٤) معد ، اسم المعز لدين الله الفاطمي والد الشاعر . الديوان ص ٢٤ هامش (١)

(٥) الديوان ص ٢٤ .

والشخصية والوصف والحوار والمكان واللغة المعبرة ، وهو بسوقه لتلك الأحداث في ذلك الإطار إنما يهدف إلى إقناعنا بصدق تجربته من ناحية ، وواقعيته من ناحية أخرى ، يبدأ الشاعر بذكر صاحبه وأخلاقه ومطاوعته له ، واستصحابه إلى دير القصير مكان اللهو واللعب :

ولى صاحب لا يمرضُ العقلَ جهله
ولا تتأذى النفس منه ولا القلبُ
إذا قلتُ لا في قصةٍ لم يقل بلى
وإن قلتُ أصبو قال لا بد أن
سريعٌ إذا لبى صبورٌ إذا دعا
يهون عليه في رضا خله

ويمضي الصاحبان حتى يصلا إلى دير القصير؛ ليجد المرأة الخفيفة الظل ، والتي يبدو أنها صاحبة الدار ، وهناك يجري بينهما حوار ، فتسألهم فيم مجيئكما ، ويجيبان : قصدنا اللهو واللعب والقصف والزمز ، وترد : إن عندي ما تريدون وفوقه ؛ فهنا الفتاة الجميلة ، والغلام الأمد ، والخمر المعتق .

غدوتُ به يوماً إلى بيت حانةٍ
وللغيمِ دمعٌ ما يكفُّ له سكب
وقد نَفَحَتْ رِيحُ الصَّبَا بِمَنَافِسِ
عَبِيرِيَّةِ الْأَنْفَاسِ طَابَ لَهَا التُّرْبُ
فَأَفْضَى بِنَا الْإِدْلَاجِ^(٢) بَعْدَ تَعَسُّفِ
إِلَى زَوْلَةٍ^(٣) شَمَطَاءَ مَنْزِلِهَا رَحْبُ
مُزْنَرَةٍ أَمَّا أَبُوهَا فَقِيصَرٌ
وَحَسْبُكَ مَلِكٌ جَدَّهُ قِيصَرٌ حَسَبُ
قُصَايِرِيَّةٍ دِيرِيَّةٍ هِرْقَلِيَّةٍ^(٤)
تَقَاصَرَ مِنْهَا الْخَطُو وَاحْدَوْدُبِ الصُّبِّ

(١) الديوان : ص ٤٤ .

(٢) الإدلاج : السير ، والدلجة بالضم والفتح ، السير من أول الليل ، فإن كان السير آخره فادلجوا بالتحديد . القاموس (م د ل ج) .

(٣) زولة : المرأة الخفيفة الظيفة ، والزول : الخفيف الظريف الفطن ، وهي بـ هاء . القاموس مادة (ز و ل) .

(٤) هرقلية : نسبة إلى هرقله مدينة بالروم ، وأصل ضبطها بفتح الراء وسكون القاف ، ولكن الشاعر تصرف في النطق بها للوزن فضببطها بسكون الراء وفتح القاف .

وقالت لنا أهلاً وسهلاً ومرحباً وقَلَّ لكم منِّي البشاشة والرحب
 مَنْ أَنْتُمْ فقلنا عُسْبَةً من بني الصِّبَا دعاهم إليك القَصْفُ والعَرْفُ واللَّعب
 فقالت على اسم الله حُطُّوا رِحَالَكُمْ فعندي الفتاة الرُّؤْدُ (١) والأمرْدُ الرُّطْبُ
 وراحَ نَفَى أَقْدَاءِهَا (٢) طولُ عمرها فجاءتُ كما يُدْرِي مَدَامِعَهُ الصَّبُّ (٣)

ونلاحظ تلك الأوصاف التي يسبغها الشاعر على شخصه ، والتي تبطن من تصور الحدث ، ولكنه على كل حال ينمو ويتطور بصورة مطردة ، لنرى بعد ذلك فتاة يبدو أنها نصرانية ، وقد جاءت بزق من الخمر يفيض الشاعر في وصفه ، ثم يتطور الحدث ليصور لنا ما وقع بين الشاعر وتلك الفتاة ، حيث عشقها وأغرم بحاسنها ، ومن ثم أراد أن يفتك بها ، وأثناء ذلك أعلنت له ديانتها ؛ فالمسيح هو ربها ، فاستيقظت حمية الشاعر وغيرته على دينه ، ومن ثم يتعامل معها في شدة وعنف ؛ حتى تضرجت فخذها بالدماء ، وما زال بها على أيام مضت قضاها في اللهو واللعب، وهذه نهاية رأيناها في أكثر من قصيدة تحمل تجربة اجتماعية، مما يشير إلى أن الصورة مستوحاة من ذاكرة الشاعر، استحضرها أسفاً على الأيام الماضية ، وحنين إلى الزمن الذي ولى ، فانظر معي كيف صور " تميم " هذا المشهد ورصد تفاصيله فبدأً أمامنا واضحاً فما هو ذى يقول :

فجاءتُ تجرُّ الزَّقَّ نحوي كأنه على الأرض زنجيُّ بلا هامةٍ يحبُّو
 فلما مزجناها بدا فوق رأسها حبابٌ كما ينسابُ من سلكه الحَبُّ
 وطاقف بها هيفاءً مُخَطِّفَةً الحشَا معاطفها سلمٌ وأحاطها حَرْبٌ

(١) الرؤد : الشابة الحسنة . لسان العرب مادة (ر د) .

(٢) نفي أقْداءها : أزال خبثها ، وأقْدأوها ، جمع قْدَاء ، وهو ما يقع في الشراب من تراب وتبن ووسخ ، أو ما يتعلق بنواحي الإتياء من أوساخ . لسان العرب مادة (ف ذ) .

(٣) الديوان : ص ٤٤ ، ٤٥ .

تَمَائِلَ رَدِّهَا وَأُدْرَجَ خَصْرُهَا لِيَانًا وَلُطْفًا مِثْلَ مَا تُدْرَجُ الْكُتُبُ
شَكَا كَشْحَهَا الزَّنَارُ مِمَّا يُجِيعُهُ وضاق بها الخخالُ وامتأ القلبُ

أحلت لي الصهباءُ تقبيلَ وجهها وما كان قبل السُّكْرِ في لثمه عتبُ
كأنِّي وقد أضجعتها وعلوتها من الشكل رَفَعُ تحت ضمته نَصْبُ
وما فضَّ لامي صاها بجنابةٍ سوى قولها إن المسيح لها ربُّ
فلما أعاظتني بإظهار كفرها ذببتُ عن الإسلام إذ أمكن الذبُّ
وضرَّجتُ فخذيتها دَمًا بمصمِّمٍ تُقرُّ له البيضُ المهنَّدةُ القُضْبُ
فما ترحت حتى أنابتُ وأسلمتُ فهل لي في فتكٍ بها بعد ذا ذنبُ
أبا حسنٍ هاك المدامةَ واسقني فقد شاب رأسُ الشَّرْقِ واحلوكَ الغربُ
سلامًا على دِيرِ القُصَيْرِ ومرحباً به فله مني التَّخْصُّصُ والقربُ^(١)

لقد جمع الشاعر لقصيدته من عناصر القص ما يبرز واقعية الحدث ، ويعلن عن صدق تجربته ، ومعاشته للأحداث بنفسه ، حيث كان بطلها ، والمحرك الأول لأحداثها .

إن الحدث في هذه القصيدة نام متطور ، له بداية ووسط ونهاية ، والشخصيات يمثلها الشاعر وصاحبه والمرأة صاحبة الحانة والفتاة التي عشقها الشاعر ، وأما الحوار فهو واضح ظاهر يستغرق جل النص ، ويسير بالحدث ، ويدفعه إلى النمو والتطور، وفي ثناياه تأتي الأوصاف الدقيقة التي تتناول الصاحب وصاحبة الحانة والفتاة المعشوقة ، وأما المكان فهو دير القصير، ويصف الشاعر جوه المحيط به في دقة ؛ تجعل من هذه الأوصاف انعكاساً على نفسه ، ومنبعثة منها ، وأما اللغة فهي سهلة معبرة ، ليس فيها تكلف ولا تقعر

(١) الديوان : ص ٤٥ ، ٤٦ .

تناسب أسلوب القص، وواضح أن الشاعر قد أتاح من مخزونه واستدعاء ذاكرته، كما يشير إلى ذلك آخر النص، فيعطي ذلك إشارة سريعة إلى زمان الحادثة، وإن لم يكن ذلك واضحاً كل الوضوح.

وعلى كل حال فالصدق الفني واضح في هذا النص، وقد صاحبه صدق الواقع الذي حاول الشاعر إثباته، وإن كان الذي يعيننا هنا هو صدق الشاعر في مشاعره وأحاسيسه، وهو ما تضافرت على وجوده عناصر النص المختلفة. ويواصل الشاعر تسجيل لحظات من واقعه، غير أنه يضيف عليها من مشاعره ما يكسب تجربته خصوبة وثراء؛ فهذا هو ذا يمر ببستان ليرى فيه من سلبت، بل من سلبت قلوب كل من يراها.

رأيتُ في البستان إنسانةً صفراء للأبواب سلايةً^(١)

ويعرج الشاعر على تلك الفتاة، فيصورها من الداخل بعد أن صورها من الخارج، إنها تبدو كظبية شاردة من الظباء، فكأنها في حالة خوف وارتباك. كأنها لمَّأبَدَتْ ظبيَّةً من الظباء العُفر^(٢) مُرْتَابَةً^(٣)

ويزداد إعجابه بجمالها، حين يراها تقلب بين يديها نيلوفر، بين تلك الأنامل اللينة الرخصة التي حملته.

يا حسنَهَا تُومي بنيلوفرٍ قد ركبته فوق عُنَابِهِ^(٤)

وتتحرك مشاعر "تميم" حين يراها تقلب بيديها تلك الزهرة، فينجذب إليها، ويغرم بجمالها، ويقع أسيراً لحبها، ومن ثم يتساءل قائلاً:

(١) الديوان : ص ٤٨ .

(٢) العفر : جمع عفراء، والأعفر من الظباء ما يعلو بياضه حمرة، أو الأبيض ليس بالشديد القاموس مادة (ع ف ر) .

(٣) الديوان : ص ٤٨ .

(٤) نفسه : ص ٤٨ .

فقلتُ نِيْـؤْفَرَةً هَذِهِ أُمُّ بَفْؤَادِي أَنْتِ لِعَابِهِ (١)

وسواءً كان الشاعر صادقاً في إحساسه الذي أعلنه ، أم كان ذلك من قبيل المداعبة والتخيل ؛ فإنه على كل حال قد نجح في تصوير تجربته ، والإبانة عما اعتراه ، إزاء هذه اللحظة الواقعية ، وذلك عن طريق عدد من الوسائل ، لعل أبرزها الأسلوب السهل ، والألفاظ الرقيقة المناسبة للموقف البسيط المراد تصويره .

وتأتي الصورة لتشكل أبرز وسائل الشاعر في تصوير تجربته ، فالصورة الكلية المتمثلة في تلك الفتاة الواقفة في بستان ؛ تقلب بين يديها زهرة تشمها تارة ، وتضعها أخرى ، تمثل العمود الذي ارتكزت عليه فكرة الشاعر، والتي استعان في إبرازها بعدد من الصور الجزئية ، من مثل الاستعارة في قوله " للألباب سلاية " ، والتشبيه في قوله " كأنها لما بدت ظبية " ، والكناية في قوله " أم بفؤادي أنت لعابة " ، وأخيراً تأتي الموسيقى الخفيفة المترقصة ، المعبرة عن لحظات الفرح ، ندرك ذلك من خلال تسارع الجمل ، وتلاحقها ، وخفتها على السمع دون تعقيد أو تكلف .

وفي شعر " تميم " نرى ذلك النوع من التجارب ، والذي يمكن أن يطلق عليه التجربة الفكرية ، وهي تجارب في معظمها ذات دلالات اجتماعية عميقة ، يشكل الفكر أساساً لها ، وركناً تقوم عليه ، وهذا النوع يظهر أكثر ما يظهر في شعر المدح والمراسلات ، فـ " تميم " يكتب إليه صديقه " الحسين بن إبراهيم الرسي " قصيدة ، فيجيبه شاعرنا بقصيدة مثلها في العدد والوزن والقافية ، ومن هنا كان عنصر الفكر هو العنصر الأبرز في بناء القصيدة ، غير أننا مع ذلك لا نعدم تلك الدلالات الاجتماعية العميقة ، فنراه يقول مادحاً لهذا الصديق ، ومبيناً صفاته

(١) نفسه : ص ٤٩ .

ومواهبه ، ومما يتميز به شعره :

جزالة شِعركِ في لفظه وتأويله الواضح الرائقُ
ومُنطاعُه لك يحكي لنا بأن هواك هوى صادقُ
كأنك من نفسِ كلِّ امرئٍ لألفاظِه قائدٌ سائقُ^(١)

وتزداد الدلالة الاجتماعية وضوحاً حين يبرز في قصيدته خصلة اجتماعية ،

هي الود والمحبة يقول :

ودادك مِنّا وإن كان لا يترجم عن قدره الحاذق
مقيمٌ بحيث أقام الفؤا دُ وَالْقَلْبُ وَالْكَبِدُ الْخَافِقُ
وإنك لَلْفَاتِحُ الْمُسْتَقِـلِّ ل والقائلُ اللّسنُ السابقُ^(٢)

والتجربة في هذه القصيدة لا تبدو متكاملة ، ولا تظهر في ثوب قشيب ؛ لأن الشاعر قد ركز على صفات تتصل بممدوحه ، واستعمل فكره في التدايل عليه ، فتوارى عنصر الخيال أمام سطوة العقل وغلبة الفكر ، فالتجربة هنا لا تبدو عميقة ، غير أنها تظهر في شكل دلالات اجتماعية يشف عنه النص ، وإن كان لا يعلنها في سفور ، ولكنه يوحي بها إيحاءً .

وفي إطار التجربة التي تمتاح من الواقع ؛ يأتي ذلك النوع من التجارب الذي يعتمد على ملاحظة الشاعر : مشاهداته ، إذ ليس من الضروري أن ينفمس الشاعر في التجربة بشخصه ؛ (لكي يحسن تصويرها فلربما كان نظره إليها عن بعد ؛ أدعى إلى تصويب ملاحظته وشمولها)^(٣) .

ومن خلال هذه الملاحظة يشاهد الشاعر مظهرها من مظاهر الحياة ، فيتعلق

(١) الديوان : ص ٢٩٩ .

(٢) الديوان : ص ٣٠٠ .

(٣) د / محمد مندور : الأدب ومذاهبه ص ١٥ .

به قلبه ، وتختزنه ذاكرته ، ومن ثم يضيف إليه من خياله ما يجعل من ذلك المشهد صورة من صور الحياة ، لكنها ليست الصورة الآلية الفوتوغرافية ، التي نقلت بفصها ونصها من الواقع ، فهي صورة منه أضاف إليها الخيال ما يجعلنا نرى الواقع ، ولكن برويا جديدة مختلفة ، فالشاعر من خلالها ينقلنا إلى عالمه ، ويبث فينا رؤيته التي تكونت عن ذلك المشهد في مخيلته ، وها هو ذا " تميم " يرى قصراً لأخيه " العزيز " ، فيعجب به أيما إعجاب ، ومن ثم يرصد المشهد بأجزائه المختلفة ، ويضيف إليه من خياله وتصويره ما يزيده جمالاً على جمال ، يقول :

ولمّا رأيت قصورَ العزيز وزينتها والمحلّ السّنياً
وقد نُضدّت بضروبِ الحريرِ وقابلَ منها البهيُّ البهيّاً
حسبتُ مقاصيره جنةً وخلتُ العزيزَ بهنّ الرضياً^(١)

لقد ظن الشاعر قصور العزيز جنة ، فنقلنا من عالم إلى عالم عن طريق الخيال الذي حملنا على أجنحته ، المتمثلة في التشبيه والمجاز وموسيقى النص بنوعها داخلية وخارجية .

وقد يرصد الشاعر مظهراً اجتماعياً يبدو تافهاً لا قيمة له ؛ فيكون موضوع القصيدة هيناً ، ولكن " تميم " من خلال وسائل تعبيرية ، وأدوات فنية يستطيع صناعة تجربة قوية معبرة ، فيصبح الموضوع الهين موضوعاً ذا دلالة عظيمة ، وفي هذا الميدان رأينا " تميماً " وقد رصد في شعره عدداً من المظاهر الهينة ؛ ذات الدلالة الاجتماعية الكبيرة ، فها هو ذا يصف شمعة ، وهي على قلة أهميتها إلا أنها تصور مشهداً من مشاهد المجتمع في هذا العصر، يقول :

وباكية متوجّة بنار كأنّ دموعها حبّب العفّار

(١) الديوان : ص ٤٦٠ .

إذا ما توجت في دار قوم رأيت الليلَ منها كأنهار
فتاة عمرها عمرٌ قصير ولكن نفعها نفع الكبار^(١)

إنه يريد أن يبرز خطر هذا الشيء الذي قد يبدو تافهاً ، فنجح في ذلك عن طريق الخيال ، والذي كان عماده التشخيص ، فالشمعة باكية متوجة ، عمرها قصير ، ولكنها تفعل فعل الكبار، هذا بالإضافة إلى المفارقة التي أحدثها الشاعر، وما أضفته على النص من إثارة ودهشة ، كل ذلك أسهم في تحقيق غرض الشاعر، ونجاحه في مرماه .

ويبالغ الشاعر في تعظيم خطر الشمعة ، ويصورها في دقة مفرطة ؛ فتبدوا أمامنا وكأنها شئ آخر له ، قيمة عظيمة ، وأهمية كبيرة يقول :

ومشرقةً وجنح الليل قارُ لها من كل ناحية منار
تضرّ بنفعها فلها دموع على الخدين مسبلة غزار
أعار العُصنُ قامتها استواءً ووكّلتها على الليل النهار
إذا ما رأسها قُطِف استفاقت وجانبها التخوفُ والحذار
أقول ونارها تسطو عليها كما بالليل يسطو الانفجار
بنفسي كلُّ مهضومٍ حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصار^(٢)

ويرصد " تميم " ظواهر اجتماعية مختلفة ، وإن كانت لا تمثل تجارب عميقة ، إلا أنها تسجل لحظات من حياة الشاعر من ناحية ، وتصور عادات وتقاليده وأعراف المجتمع المصري ؛ في عصر " تميم " من ناحية أخرى ، فشعره في هذه الناحية يعد وثيقة اجتماعية وتاريخية لهذا العصر ، ذلك أن الظواهر التي سجلها " تميم " مما يتصل بحياة الناس ، فقد رأينا في شعره تهنئة بمولد ، وتعزية في

(١) نفسه : ص ٢٢١ .

(٢) الديوان : ص ٢٢٨ .

مفقود ، وحديثاً عن قدوم رمضان واستقبال العيد ، وغير ذلك مما يصور الجانب الاجتماعي في شعر " تميم " ، فمن التعزية ما كتبه إلى صديقه " الحسين ابن إبراهيم الرسي " يعزّيه في وفاة أبيه ، وكان " تميم " قد تأخر عن العزاء ، والصلاة على المتوفى ، فعاتبه صديقه " الحسين " بقصيدة ، فرد عليه " تميم " معزياً ومعتذراً بقصيدة أخرى يقول فيها :

يا من صفا ودُّ صدري	له وسِرِّي وجهري
ومن تكدرّ عندي	لرزئه صفوُّ دهري
ما مات ركنك لا بل	ركني وفخري وذخري
لو كنت أملك عمري	وهبتهُ شَطْر عمري (١)

وها هو ذا يهنئ أخاه " العزيز " بالعيد ، ويصف الخليفة في خروجه بين

جحفل من جنوده ، وركب عظيم يحيط به في هذا اليوم فيقول :-

هنيئاً لك العيدُ الذي أنت	من الله للمرضيك فيه بشير
برزت كبدر التّم تَقَدَّم جَحْفَلًا (٢)	تكاد بنا الأرض الفضاء تمور (٣)
فللبيض برقٌ في أعاليه خاطفٌ	وللأسد ركضٌ تحته وزئير
كأنّ الدروع السابغاتِ عليهم	لما ألفوها سُنْدُسٌ وحرير
وقد منحوك اللّحظّ من كل	وكلّهم صافي الضمير شكور
فمن مقلّةٍ منهم عليك حبيسةٍ	ومن إصبعٍ فيهم إليك تشير (٤)

(١) الديوان : ص ١٥٤ .

(٢) جحفلاً : الجحفل : الجيش الكثير ، ولا يكون حتى يكون فيه خيل ، والجحفل : السيد

الكريم ، ورجل جحفل : سيد عظيم القدر . اللسان مادة [ج ح ف ل] .

(٣) تمور : تضطرب ، والمور : الموج والحركة والاضطراب . القاموس مادة (م و ر) .

(٤) الديوان : ص ١٤٣ .

إننا أمام صورة كلية ، ومشهد متكامل ، يبدو فيه الخليفة وقد تقدم جمعاً من الناس ، تضطرب به الأرض لكثرتة وعظم قوته ، ووجه الخليفة يعلوه الإشراق والصفاء ، وهذا الجحفل في أيديهم سيوف لامعة ، وتحتهم أفراس تزار كالأسود ، وقد لبسوا الدروع الثقيلة ، ولكنهم لكثرة لبسها واستعدادهم الدائم للحرب ؛ لم يشعروا بثقلها فهي بالنسبة لهم سندس أو حرير يغطي أجسادهم ، إن من حولك ينظرون إليك ، وكأنهم يحرصون على أن لا تفوتهم لحظة لا يبصرونك فيها ، فهم يراقبونك في حب وصفاء خاطر، وشكر لما تقدمه لهم ، إنهم يلتفون حولك ، ويتحدثون عنك فهم ما بين ناظر إليك بمقلته ، أو مشير إليك بإصبعه ، وهذا اهتمام بك ، وحرصاً عليك ، وإبرازاً لمحبتك ، رأيت كيف صور الشاعر مظهراً اجتماعياً قد كان إبراز المظاهر في الدولة الفاطمية ، وهي مواكب الأعياد حيث كان لها مراسم خاصة ، وطقوس معينة .

ويولد لأخيه " العزيز " مولود ؛ فيهنئه " تميم " ، ويعلن سعادته وسعادة الناس جميعاً به فيقول :

ولدت الشمسَ يا صبحَ المعالي	فأنجبَ والدٌ ونما وليدٌ
فأفنيةً الزمانَ به ملاءً	وكوكبها بأسعدُه سعيد
وليدٌ كانت الدنيا ترجي	ولادته وترقبُه السعد
تباشرت الليالي والمعالي	بمولده وجُدَّت العهود ^(١)

وفي ديوان الشاعر الكثير من صور المجتمع ؛ التي نقلها إلينا مضيفاً إليها من خياله ؛ فأمتعنا بها من ناحية ، وأعطانا صورة لمجتمعه من ناحية ، وأبرز بعداً من أبعاد شخصيته من ناحية ثالثة ، وقد آثرنا الاقتصار على هذا العدد القليل من الصور؛ رغبة في الإيجاز من ناحية ، واكتفاءً بدلالاتها من ناحية أخرى .

المبحث السادس

التجربة الخيالية

نرى عند " تميم " ما يعرف بالتجربة الخيالية ، وهو نوع من التجارب يشكل الخيال عمادها ، حيث يؤدي دوراً كبيراً فيها ، فتبني على أساسه القصيدة ، وتبدو قدرة الشاعر على التخيل ، والخروج من عالم الواقع الضيق إلى عالم متخيل رحيب ، وفي هذا العالم يبث الشاعر مشاعره وأحلامه وآلامه وآماله ، وما ذلك إلا لأن (الخيال هو الذي يخلق الصورة الشعرية ؛ جزئية كانت أو كلية ، ثم هو الذي يمد هذه الصورة بالطاقة اللازمة لها ؛ كي تتحرك وتحقق أهدافها الفنية ، ولولاه لعجزت لغة الشعر - مهما كانت راقية - عن أداء التجربة الشعرية) (١) .

وفي شعر تميم رأينا الخيال وقد أدى هذه الأدوار وتلك الوظائف ، فأفاد منه الشاعر ، وانعكس ذلك على شعره ، فها هو ذا يتحدث إلى بستانه فيتخيله شخصاً يحاوره ، ويسأله عن سبب صفرة نيلوفره ، وهل كان الهجران هو السبب ، فيجيبه: لقد أصابني ما أصابك ، فغيرني الحب كما غيرك ، لقد أذهب الحب لوني، وغير حالي ، إن صفرة وجهي وشحوبه يترجم عن حبي ، ووجودي في بطون البرك يعلن عن وجددي ولوعتي :

صَفَّرَ بِالْهَجْرَانِ نَيْلَ وَفَرَكٍ	يَأْيَهَا الْمَعشُوقُ بِاللَّهِ مَنْ
غَيْرِنِي الْحَبُّ كَمَا غَيْرَكَ	فَقَالَ وَاسْتَرْجِعْ فِي قَوْلِهِ
لَوْ نَأَلُو تَارَكْتَهُ مَا تَرَكَ	لَمْ يَتَرَكَ لِي عَشْقُ شَمْسِ الضَّحَى

(١) عبده عبد العزيز لقليلة : التجربة الشعرية عند ابن المقرب ص ٦٩ .

صُفْرَةٌ وَجْهِي تَرْجَمَانُ الْهَوَى فِي وَنَبْتِي فِي جَوَابِي (١) الْبَرْكُ (٢)

وتتسع دائرة الخيال لدى الشاعر، فنراه وقد صنع من الجمادات كائنات حية ؛ تشعر وتحس وتتحرك وتتكلم ، وهذا ما يطلق عليه التشخيص أو الصورة التشخيصية ، وهو ميدان تبدو فيه براعة الشاعر، وقدرته على التصوير، حيث تسهم الصورة في نقل التجربة وإبرازها ، وفي هذا المجال نراه وقد استنتطق النبات والحيوان والجماد ، وجعل منها شخصيات تشعر وتعبر ، وها هو ذا يتحدث على لسان قطعة ثوب طرزت لتزين سقف بيت يقول :

ثِيَابُ الدَّمَى الْبَيْضِ الْحَسَانِ كَثِيرَةٌ وَلَكِنِّي مِنْهُنَّ أَبْهَى وَأَجْمَلُ
أَجْرٌ عَلَى بَيْضِ الْجِبَاهِ وَأَنْثِي عَلَى الطَّرْرِ الْمُسْتَحْسَنَاتِ وَأُسْبَلُ
وَأَنْتُمْ مُحَمَّرَ الْخُدُودِ بِإِذْنِهَا وَالْوَى عَلَى اللَّبَاتِ طَوْرًا وَأَحْمَلُ
وَلَمْ تَجْفُنْ مَدُّ كُنْتُ يَوْمًا مَلِيحَةً وَلَمْ تُرَعْنِي ذَاتُ حُسْنٍ تَنْقَلُ (٣)

ولأن الشاعر صاحب قدرة على الخيال ، وقد اشتد إعجابه بجمال هذا الثوب ، فقد تخيله شخصاً يقف مفتخراً بتيه بجماله ، يقول : إن الأثواب الجميلة كثيرة ، لكنني أفوقهم جميعاً ، وأتميز عليهم إنني أسدل على الوجوه البيضاء ، وأوضغ على الطرز المستحسنة ، وما ذلك إلا لشدة جمالي ، إنني جدير بأن تلتف بي الوجوه الجميلة ؛ فأكون غطاءً لمحمر الخدود ، إنه حديث إنسان يعرف قيمته ، ويدرك أهميته ، استطاع الشاعر بسعة خياله أن يأتي به على لسان مالا ينطق ، فبعث الحياة في غير الحي ، ورسم صورة نابضة كان الخيال هو ركنها الرئيس ، وعمادها الذي ارتكزت عليه . وواضح أن الشاعر مغرم بجمال هذه الأثواب ،

(١) جوابي : جمع جابية وهو الحوض الجامع للماء ، والجابية : حوض ضخم ، وجبي

الماء جمعه . القاموس - ٤ ص ٣٠٤ مادة (ج ب ي) .

(٢) الديوان ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٣) الديوان : ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .

المطرزة وربما كان لوجودها في حياته بكثرة ؛ أثر في ذلك ، فها هو ذا يتحدث على لسان طراز ستر فيقول :

أنا أظرف الحجاب شخصاً وموقعاً وأكتمهم سرّاً على المتكلم
وإن همّ محبوبٌ بوصلِ حبيبِهِ وقيتُهُما من كل واشٍ ومُبرِّمٍ (١) (٢)

إني حاجب من الحجاب يتميز بالظرف ، وكتمان الأسرار وليس هذا وحسب ، بل إنني أرى المحبوب الذي يصل حبيبه فأرق لهما ، وأقيهما شر الحاسد والواشي ، لقد خلع الشاعر من إحساسه ومشاعره على هذا الجمال ، فصنع منه شخصاً له قلب يشعر ويحس ، وينبض بالحياة ، ويقوم بالفعل ورد الفعل ، وقد يلاحظ الشاعر صورة من صور الحياة ، أو يعيش مشهداً من مشاهدها ؛ فيثير ذلك انفعاله ، وتتهيج عاطفته ، ومن ثم يتسع خياله ؛ فيتفاعل مع هذا المشهد ليصبح مفردة من مفرداته ، وجزءاً يتصل بأجزائه ، فها هو ذا يرى سرباً من الحمام ، وقد ارتفع فوق الغصون سعيداً ، يغني للحياة ، ويغرد معلناً عن سعادته ، وكيف لا وهو يسكن في خضراء ناعمة الربا أنيقة ، روضة النبت ، أنسة المغنى ، وليس ذلك وحسب ، بل إن هذا الحمام لا يخشى فراقاً ، ولا هجران ، ولا يعرف الهم ، ولا ينتابه الحزن .

يرى الشاعر ذلك كله أو يتخيله ، فتتهيج أحزانه ، وتتحرك مشاعره التي يعصرها الألم على حاله وما يعانيه ، فيخاطب الحمام لعل ذلك يخفف ما به من حزن ، أو قل إنه يفضي بآلامه إلى ذلك الأنيس ، أو يبثه أحزانه وأشجانه يقول مخاطباً إياه : أيها السرب لو أن بك ما بي لما عرفت للسعادة طريقاً ، ولكن الضنا والحزن هو مرتعك وثوبك الذي ترتديه ، ولو أنك عرفت الذي أعرف ما

(١) المبرم : الثقيل من برم الحجر أي قطعه كأنه يقتطع من جلسائه شيئاً . القاموس

مادة (ب ر م) .

(٢) الديوان : ص ٣٩٦ .

غنيت للحياة ، ولا سعت كل هذه السعادة ، لقد عرفت من تجاربي وخبراتي
للأيام أنها لا تدوم ، ولا تقر على قرار:

أقول لسربٍ من حمامٍ عرَضن لي ويسكن في خضراء ناعمة الربا
يُغرِّدن في أعلى الغصون ويندبنا بوارح لا يخشين بيناً ولا نوى
أنيقة روض النبت أنيسة المعنى فقلت هنيئاً للحمام أمانه
روائع لا يعرفن همّاً ولا حُرّاً أسرب الحمام لو لقيتن بعض ما
وإن كانت الأيام لم تعطني أمناً ولو قد علمتن الذي أنا عالم
ألاقي لأصبتن أول من يضمني ومن جرب الأيام تجربتي لها
لما ناح منكم هاتِفٌ لا ولا غنى ودرى أنها ليست تدوم على معنى^(١)

وينتقل الشاعر بخياله للحديث مع الدهر، وذلك بعد حديث مع الحمام ، شمل
وصفاً لظاهره ، واستبطاناً لداخله ، ووازن فيه بين حال الطائر وحاله ، فنراه
يطلب من الدهر، أن يخفف ما أنزله به من عناء ، وما وضعه على كاهله من
أثقال تكاد تقصم ظهره ، ويستمر الشاعر في حديثه مع الزمان ، معلناً تحديه له ،
ومظهراً قوته وصلابته في مواجهته فيها هو ذا يقول :

فحسبك يا دهرُ اصطليتَ بنارٍ من لو أنك سمّ في تراقيه ما أنّا
وأكثرُ ما أهجوك يا زمني به من الفعل أني لم أحسن بك الظنّا
ذممناك يا صرفَ الحوادثِ فانتصيرُ وسؤناك يا ريبَ الزمانِ فخذ منّا
فإنّا أناس لا نذلّ لنكبةٍ وأخلاقنا لا تعرف الخوفَ والجبنّا^(٢)

ولعلنا قد أدركنا بعد ذلك أن تجربة الشاعر التي تلبس بها ؛ وانطلق منها في
إبداع ذلك النص ؛ هي تجربة نفسية حزينة ، ملؤها الألم من صروف الدهر

(١) الديوان : ص٤٧ .

(٢) السابق نفسه .

وخطوبه التي تغشاه بين حين وآخر ، لذلك كله تحرك خيال الشاعر، ليعبر عن تجربته تلك ، إذ الخيال عنصر مهم من عناصر التجربة الشعرية ، فهو يساعد على إبراز الصورة النفسية ، وإظهار تمامها واكتمالها ، وبمقدار ما تتمثل تلك الصورة أمام أعيننا ، وبرزوها في مخيلتنا ؛ تكون قيمة النص ، وقدرة الشاعر على استخدام ذلك العنصر في نقل تجربته ، وهو ما نجح فيه " تميم " إذ استطاع توظيف عنصر الخيال ، فقد تمكن بواسطته من نقلنا من عالمنا الحقيقي (عالم الواقع) إلى عالمه الداخلي ، وهو عالم يصعب التعبير عنه ، والولوج إليه ، إنه عالم لا بد لمن يدخل فيه من أن يحلم ؛ حتى يحس أنه قد فارق عالمه المليء بالأشياء الوقتية العارضة .

وواضح أن الشاعر في قصيدته قد خرج بنا من نطاق الواقع إلى نطاق الحلم ، فرأيناه وقد تخيل نفسه وهو يتحدث مع حمام يختلف معه في الظروف ، وتتباين حاله مع حاله ، إنها صورة متناقضة ، وحالات نفسية متباينة ، تمكن الشاعر من نقلها إلينا عن طريق الخيال ، فنجح في ذلك أيما نجاح ، لقد عبر " تميم " عن مشاعره من خلال حديثه الهادي الرقيق إلى ذلك الطائر، غير أنه قد رأى أن الحديث الهادئ ، والنغم الرقيق ، وبث شكواه إلى هذا الطائر الرقيق لا يجدي ، ومن ثم ثاب إلى رشده ، وتغيرت نبرة حديثه حين وجهه إلى الدهر معلناً أنه ليس ضعيفاً ولا هيناً ، فقد انتقل من الحديث مع الحمام إلى حديث الشعر ، إلى حديث آخر مع الزمن ، ويبدو من خلال هذا الحديث أن الشاعر في مواجهة حادة ومعركة شديدة مع الدهر، فهو بذلك كله نجح في نقل تجربته إلى قارئه ، وتمثيل صورته النفسية تمثيلاً جيداً من خلال خيال واسع رحيب ، فالتجربة هنا هي عبارة عن خيال تام ، خيال أنسانا من خلاله عالمنا ؛ إذ يحملنا ذلك الخيال على أجنحته إلى عالم جديد ، نشعر فيه بلذة غير مألوفة ، ومشاركة وجدانية تجعل ما يعانيه الشاعر ينسحب علينا ، فنحس بإحساسه ونشعر بمشاعره .

وليست أجنحة الخيال إلا الصور الجزئية بكل أشكالها ، والصورة الكلية بكل

مقوماتها ، وموسيقى الشعر بكل ألوانها ، كل ذلك وغيره يمثل أجنحة للخيال ، يرفرف الشاعر بها في سماء عالمه المتخيل ، وها هو ذا يرسم لنا لوحة فنية ، يبدو فيها هو وسرب من الحمام يتحدث معه ، ويبثه شكواه ، ثم يعرض لتلك الحياة الناعمة الرخية التي يحياها ذلك السرب ، كل ذلك من خلال صورة كلية معبرة ، فانظر كيف صور الشاعر سرباً من الحمام ، يغرد فوق الغصون ، وتحت أرض خضراء معشبة ، يغشاها نسيم عليل ، ولا يكتفي الشاعر بتلك الصورة الخارجية ، بل يلج إلى نفس الطائر، فيصورها من الداخل ، حيث تبدو هادئة آمنة مطمئنة ، لا تخشى صروف الدهر، ولا تخاف غوائله ؛ لذلك تغنى في سعادة .

وينتقل الشاعر من تصوير خارجي وداخلي للحمامة ؛ ليدخل بنا إلى عالمه النفسي الحزين الخائف المترقب ، لذلك تراه يغبط الحمام على ما هو فيه ، ولا يكتفي الشاعر بذلك النوع من التصوير، بل نرى في النص صوراً جزئية ، يأتي على رأسها التشخيص ، المتمثل في حوار مع الدهر ، وتحديه له يقول " فحسبك يا دهر " ، وواضح ما للخيال من دور في بعث الحياة في ذلك النص ، وبث المتعة في نفس قارئه ، وما ذلك إلا لأن الشاعر قد تحول بواسطته من مجاز إلى مجاز ، ومن استعارة إلى أخرى ، وكأننا نقفز معه من سمائه ، ومن أفق إلى أفق ، فنشعر بغير قليل من البهجة .

و " تميم " شاعر حساس ، يتذوق الجمال ، ويعرف للفن قيمته ؛ لذلك ما أن يرى قطعة فنية حتى يدرك موطن الجمال فيها ، فها هو ذا يعجب بقصر بدت عليه معالم الجمال ، فيتحدث على لسانه يقول :

إن يحسدُ الصبحُ إشراقي فمعدورُ	بي تُشرقُ الشمسُ والأفلاكُ والنورُ
أطاعني الحسنُ وانحطَّ الجمالُ	سَمَكِي وأسعدَ بنياني المقاديرُ
فساحتني بآبن هادي الخلق مشرقةً	ومنزلي بالعلأ والمجدِ معمورُ

كأنني بُرَجُ سعدٍ ما يفارقه خَفَضُ وطيِّبٍ وتقديسٍ وتطهير
يضاحك النيلُ أركاتي مغزلةً إذا بدت للصبا فيه قوارير^(١)

لقد صنع الشاعر من القصر إنساناً يتيه بجماله ، وتخيله بشراً يفخر بتعداد
مواطن الحسن والبهجة فيه ، ويفخر بها على غيره ، وقد كان للخيال هذا أثره
على توالي الصور وتتابعها ، وهو ما سوف نكشف عنه عند دراستنا لأثر الخيال
في الصورة الشعرية .

مما سبق يبدو لنا أن الشاعر قد ارتاد بتجربته آفاقاً متعددة ، وسار بها في
ميادين فسيحة ، فعبر عن أبعاد شخصيته المختلفة ، وكأنني به لم يغادر بعداً من
أبعاد شخصيته ؛ إلا وألقى عليه ضوءاً كاشفاً من شعره ، وهو بهذا يؤكد لنا أنه
شاعر ملك زمام الشعر، وتقلد الموهبة الفطرية ، فكان شاعراً صادقاً تمام الصدق
في تجربته ، فيما عدا القليل مما رصدناه من خلال دراستنا لشعره .

الفصل الثالث

التجربة وبناء النص

العلاقة بين التجربة والبنية الفنية للقصيدة علاقة تبادلية ؛ حيث يلعب كل منهما دور المؤثر والمتأثر في وقت واحد ، فالتجربة الصادقة تبعث الحياة في القصيدة ، وتيسر على الشاعر استخدام وسائله الفنية والربط بينها ربطاً فنياً محكماً ، كما أن البناء الفني للنص يصور التجربة ويجليها .

وفي طليعة عناصر النص تأتي اللغة بوصفها الإطار والثوب الذي يكسوه الشاعر قصيدته، ثم تأتي الصورة والتي تكاد تكون مرآة للتجربة، تبرزها وتجليها من ناحية ، وتعمل التجربة بدورها على تنويع الصورة وتشكيلها فنياً ؛ بما يتناسب مع موقف الشاعر وحالته الشعورية .
وأخيراً تأتي الموسيقى فتعكس شعور المبدع وإحساسه ، ومن ثم تكون صدى لتجربته .

وسوف نعرض لكل عنصر من هذه العناصر، موضحين العلاقة المتبادلة التي تربطه بالتجربة ، ومدى تأثيره بها وتأثيره فيها .

المبحث الأول

التجربة ولغة القصيدة

إن اللغة هي الوعاء الناقل للتجربة ، والوسيلة لحملها من داخل المبدع إلى متلقيه ، فالتجربة (تبقى في مرحلتها الشعورية ، فلا تعد عملاً أدبياً له وجود خارجي ، إلا حين تأخذ شكلها الصوري (اللفظي) ، ومن خلال هذا الشكل يتسنى لمتذوقي التجربة أن يدركوها ، وتتهياً أذهانهم لاستقبالها ، ويتعاطفوا معها ، ويستثاروا إليها وإلى أمثالها ، فاللغة هي الوسيلة إلى إبراز المعاني القائمة في نفس الشاعر من ناحية، وأداة التأثير والاستثارة من ناحية أخرى (^١) وإذا كانت اللغة هي وسيلة الشاعر للتعبير عن تجربته ؛ فإن التجربة بدورها تشكل عاملاً مهماً في صناعة لغة المبدع ؛ إذ أن صدق التجربة يبدو في ثوب لغوي ؛ يختلف عن ذلك الثوب الذي ترتديه اللغة عند التعبير عن تجربة زائفة أو عاطفة باردة متكلفة ، وما ذلك إلا لأن الصياغة الفنية التي تمتلكها اللغة بما تشمله من صور وموسيقى وألفاظ هي (الطريق إلى إبراز المشاعر التي تعبر بدورها عن شخصية الشاعر ، ومن الضروري أن تكون تلك الصياغة قادرة ، في لغتها وفي صورها ، وفي إيقاعاتها ، وتكون قدرتها مرتبطة بشخصية الشاعر وانحدارها من داخله ، واندماجها في جوه ، حتى تبدو مرآة نفسه ، ومجلى ذاته ، ومظهر شخصيته الفنية) (^٢) .

وفي شعر تميم ندرك هذا التفاعل بين اللغة والتجربة ، وتأثير إحداهما في الأخرى ، فالتجربة دورها الواضح في تشكيل اللغة وتنوعها في إبداع شاعرنا ، فلغة " تميم " تختلف من قصيدة إلى أخرى حسب اختلاف الموقف الشعري وتنوع التجربة وتباين الجو النفسي المسيطر عليه ، لذلك كله كانت (كل قصيدة محتاجة

(١) د / محمد السعدي فرهود : قضايا النقد الأدبي الحديث ، ص ٩٣ .

(٢) نفسه : ص ٩٥ .

إلى لغة خاصة بها ، فلا يصح أن يتكرر استخدام اللفظ على النحو الذي تم اختياره بمقتضاه في قصيدة سابقة أو موقف شعوري لاحق) (١) . و " تميم " من أولئك الشعراء الذين تتوفر لهم القدرة على جعل ألفاظ معينة في تركيب معين ، بحيث توحى بمعاني تكشف عن عاطفة تأثر المتلقى ، فيتجاوب بدوره مع عاطفة الشاعر (وهذا يكشف ما في لغة الشعر من فردية محصورة بين الذات الشاعرة والموضوع الذي عانقته التجربة المراد الإفضاء بها بكمها ونوعها) (٢) .

ونطالع ديوان " تميم " فتلقانا مساحات واسعة قد التقى فيها اللفظ مع الموقف الشعري ، وتواعم مع الحالة النفسية ، واتسق مع السياق ، فحدث بذلك التناسب والارتباط بين اللفظ والمضمون ، وهي المهمة الأولى المنوطة باللغة ، والتي ملخصها التعبير عن التجربة وصياغتها في شكل فني مناسب ، وفيما سقناه من نماذج - دلالات واضحة على قدرة اللغة عند " تميم " على حمل المضمون وصياغة التجربة ، ولكننا لا نرى بأساً في عرض نماذج من شعر " تميم " تزيد الأمر وضوحاً ، وتؤكد ما أشرنا إليه آنفاً ، ففي معرض معانته من حالة التردد ؛ التي اعترته مع محبوبه بين الوصل والهجر الذي شاب علاقتهما ، وكدر صفوها نجد الشاعر وقد عبر عن هذه التجربة بلغة توفرت لها القدرة على نقل تلك التجربة يقول :

شكوتُ إليها لا شكوتُ صبايبي	فقالَت سقيمُ الحُبِّ من بات شاكيًا
فلما منعت الشكوى مني تجلداً	وأدمنته حتى غدا القلب ساليا
أماطت عن الخدين فضل قناعها	وقالت أنسياناً لنا أم تناسياً
فقلت لها واستعجلتني بوادر	من الشوق ما أبقت علي ولا لياً

(١) د / عبد اللاه محمود حسن محروس : الظاهرة الأدبية في شعر الخوارج ، ص ٩٠ .

(٢) السابق نفسه .

شهادة حَقٌّ أَشْهَدُ اللَّهَ أَنَّنِي سَلَوْتُ وَلَكِنْ قَدْ أَرَانِي بَدَأَ لِيَا (١)

فالألفاظ " شكوت - صباية - شوق - سلوت " كلها تشي بحالة

الحرمان ، وتعبر عن الحنين والرغبة في الوصال .

ويعبر عن حزنه لمقتل " الحسين " ، فيفصح لفظه عن التجربة ،

وتعبر لغته عن الحال المسيطرة على نفس الشاعر يقول :

جَلَّتْ سَفْكَ دَمِ الْحُسِيِّ نِ وَقْتَلِهِ عِنْدِي الرِّزِيَّه

مَاذَا أَبِيحَ بِكَرْبَلَا ءَ مِنْ النُّفُوسِ الْهَاشِمِيَّه

مَاذَا تَخَطَّفَتِ الصَّوَا رِمٌ مِنْهُمْ وَالسَّمْهَرِيَّه (٢)

بَكَتِ السَّمَاءُ لِفَقْدِهِمْ وَالْأَرْضُ وَاحْتَدَّتِ الْبَرِيَّه (٣)

الموقف موقف قتل وإراقة دماء ، والأثر المترتب عليه بكاء وعويل ،

لذلك جاءت لغة الشاعر مواكبة لتلك الحالة ، ومعبرة عن ذلك الجو ،

ومن ثم أسمعنا ألفاظاً من قبيل " سفك الدماء ، القتل والفقد ، والرزية

وتخطفت الصوارم " وهي كلمات تعبر عن موقف الحرب ، ولا ينتهي

الأمر عند ذلك ، فالشاعر يكمل الصورة بما ترتب على تلك الواقعة ، لقد

قتل " الحسين " وأهله ، ومثل بهم ، فبكتهم السماء والأرض ، وغضبت

البرية كلها لفقدهم ، لقد أثار الشاعر غضب الكون كله ، وعبر عنه

بكلمات قليلة لكنها موحية بالموقف ومجلبة للصورة :

بَكَتِ السَّمَاءُ لِفَقْدِهِمْ وَالْأَرْضُ وَاحْتَدَّتِ الْبَرِيَّه

(١) الديوان : ص ٤٦١ ، ٤٦٢ .

(٢) السمهريّة : الرمح الصلب ، منسوب إلى سمهر ، اسم رجل ، كان يقوم الرماح ،

يقال : رمح سمهري ورمح سمهريّة . محمد بن أبي بكر الرازي : مختار الصحاح

مادة (س م هـ) ترتيب / محمود خاطر ، طبعة دار المعارف .

(٣) الديوان : ص ٤٥٦ .

والشاعر يرتبط بمذهبه ارتباطاً شديداً ، فترى ألفاظ الشيعة وقد تناثرت في ديوانه ، من مثل كلمة : " الوصي - البتول - الكساء - الأئمة " وغيرها .

و " تميم " شاعر أخذت التجربة الاجتماعية عنده بحظ وافر، فهو - كما يبدو من شعره - اجتماعي بطبعه ، لم يلتزم كثيراً بحياة القصور وتقاليد الحكم ، فانغمس في الحياة العامة ، والتقى بالناس لذا تراه ما بين متنزه يعبق برائحة الزهر ، أو موضع لسطر أو خمر أو صحراء يلهو فيها مع صحب أو يستمتع بصيد ، وفي ذلك النوع من التجارب ترى الشاعر قد استخدم ألفاظاً استوحاها من البيئة، واستلهمها من الطبيعة، فها هو ذا يصور مجلساً له في إحدى المتنزهات ، وفيه تبدو مظاهر الطبيعة المحيطة به ، والتي تعكس حالته المزاجية يقول :

نحن في روضة يقصّر عنها كل وصفٍ وتشتيهها النفوسُ
بين وردٍ وسوسنٍ وبهارٍ سعودٍ قد جانبها النحوس
وترى النرجس الذكي إذا ما حرّكته الرياح وهو يميمس^(١) (٢)

إنها حالة من النشوة ، وموقف من السعادة والبهجة ، يبدو من خلال اللغة المستخدمة ، فالكلمات تفيض بعاطفة الشاعر، وتعبّر عن حالته أتم تعبير، فالرود والورد والسوسن والبهار والنرجس كلها كلمات تشي بالجو الذي يعبق بالسعادة ، ويموج بالبهجة ، وأظن أن الشاعر قد ألقى بتجربته إلى متلقيه من خلال ألفاظ وتعابير؛ تنقله من الواقع المعاش إلى جو خيالي متوهم ، وذلك عن طريق تلك الألفاظ التي تبعث هذه الحالة في نفس المتلقي ، فتجعله يتفاعل مع المبدع ؛ ليشعر بشعوره ، ويحس بإحساسه .

وفي إطار تصويره لمجتمعهم ترى ألفاظاً ؛ طالما ترددت في عصره ،

(١) يميمس : يتمائل ، وماس : تبختر ، والميمس : شجر تتخذ منه الرجال .

أبو بكر الرازي : مختار الصحاح مادة (م ي س) .

(٢) الديوان : ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

ودارت على ألسنة الناس في مجتمعه ، كما تسمع أسماء لأماكن أحبها واتصل بها ، فتسمع ألفاظاً من مثل : " عين شمس - الجيزة - حلوان - دير القصير " وغيرها .

كما ترى صوراً للنيل والسفن والقصور والبرك والخلجان ، وقد عرضنا لذلك كله من خلال نماذج تناولناها في مواضع سابقة ، على أننا نلاحظ أن لغة الشاعر فصيحة ، تخلو من الخطأ النحوي إلا في القليل النادر ، وهي لغة وسيطة ، لا يحاول صاحبها الإيغال في القدم ، ولا يهبط بها إلى مستوى لغة العامة والسوقة ، بحيث تصبح ركيكة مبتذلة ، هذا في الأعم الأغلب غير أننا نجد الشاعر أحياناً وقد أتى بألفاظ صعبة وعرة ، وهذا يلقانا غالباً عند محاولته السير على منهج القدماء ، وتقليدهم في ذكر الأماكن والديار ، فنسمع عنده كلمات من مثل : الصمان والضمار وينيل ، (وهو جبل في بلاد نجد) وحرء (وهو جبل من جبال مكة) ورضوى (جبل بالمدينة) إلى غير ذلك من الأماكن التي طالما ترددت في شعر العرب الأقدمين ، وأما ألفاظه التي نرى فيها شيئاً من الصعوبة والتوعر ، فهي قليلة ، ومنها : العقوة وهي : ما حول الدار ، والمطرف : وهو رداء من خز مربع ذو أعلام ، والمثعجر وهو : السائل ، واليعاليل وهي : جمع يعلول وهو السحاب الأبيض ، إلى غير ذلك من الكلمات التي تحتاج في فهمها إلى التنقيب في كتب اللغة والمعاجم .

وأما هبوطه إلى مستوى العامة فهو قليل نادر ، لا نراه إلا في التعبير عن حالة سكر أو موقف لهو ، وحينئذ تسمع ألفاظاً قد تكون خادشة للحياء ، لكنها ليست كثيرة بحيث تعبر عن لغة الشاعر وأسلوبه في التعبير .

مما سبق يتبين لنا أن " تميماً " قد منح عنايته للفظ ، ووقف عنده طويلاً ، يؤثر لفظة على لفظة ، ويفضل عبارة على أخرى ، فينفذ من خلال ذلك إلى تجربته ، ويصور الموقف كما أراد له أن يكون .

وتيميم بهذا شاعر مبدع إذ الشاعر الحق هو الذي (يقف طويلاً عند الألفاظ ،
يؤثر لفظه على لفظه ويفضل بنية على بنية ، محاولاً إثارة الكلمة المعبرة عن عاطفته ،
لأن الشعر لغة الشعور والعاطفة ، بمعنى أنه تعبير عن المشاعر ، فاللفظة فيه تابعة
للمشاعر ، وهي خادمة لها ، يشكلها الشاعر كيف يشاء)^(١).

وإذا كان " تميم " قد اهتم باللفظة فإنه لم يهمل الأسلوب ، فاستعان بطرائق العرب
في تعبيرها، ولجأ إلى القرآن يستخدم أساليبه، ويقتبس من معانيه وألفاظه كذلك رأينا
الحديث النبوي - وبخاصة ما تداولته كتب الشيعة - ماثلاً في شعره ، هذا بالإضافة إلى
أمثال العرب وحكمها وإشارات إلى أبيات لبعض شعرائها .

وهذه الأساليب التي استعان بها الشاعر قد كانت وسيلته لإبراز تجربته ، والتي
رأيناها تقوى ويشند عودها حين يمدّها بما يناسبها من وسائل وأدوات ، فهو يستعين
بالتراث ، ويضمن أبياته أحياناً من القرآن ما يتناسب مع الموقف المراد تصويره، ففي
ميدان الحنين يذكر الشاعر أن الأرض التي قد حلها الخليفة؛ قد نالت من الشرف ما ناله
جبل الطور حين حل به موسى (ﷺ) يقول :

ناليت بفضلك في العلا ما نال من فضل لموسى الطور^(٢)

ثم هو بعد ذلك لا ينسى أن يعلن عن عقيدته مستفيداً بها في إبراز صدق تجربته ،
وكأنه بذلك يقول : إن ما أعلنه من حنين صادق كل الصدق ، إذ هو مرتبط بالعقيدة
التي اعتقدها ، وأصدق ما يكون الإنسان حين يعبر عن عقيدته ، ويبرز من خلالها ما
يريد يقول :

(١) حسن أبو المجد محمد : العاطفة وأثرها في تشكيل لغة الشعر ص ٣٣٩ حولية كلية

اللغة العربية جرجا العدد التاسع ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

(٢) سردوس : خليج بمصر قيل أن الذي حفره هو همام وزير فرعون وقد كان للعزير

بالله بستان بناحيته أو متنزه مشرف عليه .

انظر : المقرئزي : المواعظ والاعتبار ج١ ص ٧٠ ، ٧١ ، ٤٨٧ .

(٣) الديوان : ص ١٨١ .

يأبها الملك العزيز المصطفى والقائم المستخلف المنصور^(١)

واصطفاء الله للخليفة ، واستخلافه في الأرض هي عقيدة لا يتخلى عنها شيعي ، وهي ركن ركين في مذهبهم ، ويؤكد صدق تجربته من خلال عقيدته حين يقول :-

وكيف يعتادنا فيك الخلاف وقد أتى بفضلك نصُّ الوحي والسور^(٢)

ويصف تميم حرب أخيه " العزيز " مع أعدائه في الشام ، فيبني تجربته على المشاهدة ، ومن خلالها يصف الحرب في قوتها وشدّة وطيسها ، مستعيناً في ذلك بالافتباس من القرآن ، والشاعر ينجح في توظيف النص المقتبس لخدمة تجربته ؛ المبنية على الملاحظة ، فما هو ذا يقول :

سعى للشام وقد أصبحت بها الحرب نزاعةً للشوى

فكشّف من ليلها ما سجاً وقوم من زيغها ما التوى

ولما تقابلت الجحافلان وعاد كجتح الظلام الضحى^(٣)

يريد الشاعر إظهار قوة ممدوحه ، وشجاعته وإقباله على الحرب ، فيبرز صورة المعركة المستعرة ، وحينئذ يقع على وسيلة فنية تعينه على مراده ، إن الحرب لفرط قوتها تشبه جهنم ، فهي نزاعة للشوى ، وهو في ذلك يستعين بقوله تعالى عن النار {نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى} ^(٤) . ولا يكتفي الشاعر بذلك ، بل يشير في البيتين الثاني والثالث إلى الآية الأولى من سورة الضحى ، حيث تسهم الألفاظ المقتبسة في إظهار مدى شدة الحرب وقتامتها ، فكأن الكون قد تحول بها إلى ليل مظلم ، لا يكاد الفارس يرى قرينه

(١) الديوان : ص ١٨١ .

(٢) نفسه : ص ١٨٣ .

(٣) نفسه : ص ٩ .

(٤) سورة المعارج : آية [١٦] .

من شدة الغبار المنعقد فوقه .

وفي ظننا أن الشاعر قد نجح في توظيف النص القرآني لخدمة تجربته ، فاستطاع عن

طريقه تصوير المعركة ، والجو المحيط بها والمسيطر عليها من الداخل والخارج .

ويتجه الشاعر إلى السنة النبوية ، فيأخذ منها ما يلائم عقيدته ، ويستعين بهذه الوسيلة على تدعيم

فكرة يريد إثباتها ؛ لذلك تراه يدور في فلك تلك الأحاديث التي تتداولها كتب الشيعة ، ولعل أشهرها

حديث الكساء الذي أشرنا إليه سابقاً ، وحديث المواساة الذي أكد من خلاله فكرة تفضيل " علي " على

غيره ، وبيان ارتباطه بالرسول (ﷺ) ، وثم مثال آخر يوظف الشاعر فيه واقعة ترويتها كتب الشيعة ،

وهي واقعة يوم الغدير ، ومن خلالها يعالج الشاعر فكرة تفضيل سيدنا " علي " على غيره ، وتقديمه

على من سواه يقول :

ثم يوم الغدير (١) ما قد علمتم خصه دون سائر الحضار (٢)

ويتجه الشاعر إلى التراث الشعري ، فيقبس مضامين وربما ألفاظاً من أبيات لشعراء

سابقين عليه ، ومن ذلك ما جاء في قوله :

وما أم خشف ظل يوماً وليلة ببلقة بيداء ظمان صادياً (٣)

(١) أخرج الإمام أحمد في المسند بسنده عن زاز أبي عمر قال سمعت علياً في الرحبة وهو ينشد الناس من شهد رسول الله (ﷺ) يوم غدير خم وهو يقول ما قال ؟ فقام ثلاثة عشر رجلاً فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله (ﷺ) وهو يقول : " من كنت مولاه فعلي مولاه " مسند أحمد ج ٢ ص ٧١ ، ٩٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط : الأولى ١٤٠٨ هـ قال المحقق : إسناده حسن وقال الشيخ الأرنؤوط : وأما قوله : " اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " فزيادة قوية الإسناد ، وأما قوله : " انصر من نصره واخذل من خذله " هذه الزيادة لم يروها ما يقويها فهي ضعيفة " تحقيق المسند ج ٢ ص ٢٦٣ وأخرجه الحاكم في المستدرک وصححه ووافقه الذهبي وقال في السير : منته متواتر . وغدير خم غيضة بثلاثة أميال من الجحفة عندها غدير مشهور يضاف إليها .

(٢) الديوان : ص ١٨٦ .

(٣) نفسه : ص ٤٦٢ .

وقد أشرنا قبل ذلك أن الشاعر قد استوحى هذا المعنى من شعراء سابقين ، عليه كان أبرزهم " الأعمش " الذي أشار إلى هذا المعنى في بيت أثبتناه في موضعه ، وفي معارضته لأصحابه من الشعراء ، ونقائضه مع " ابن المعتز تجد أمثلة كثيرة لأبيات ؛ طالما كانت قد تكررت مضامينها لدى شعراء سابقين عليها ، غير أن الشاعر يفيد منها في إكمال فكرته ، ويوظفها في خدمة تجربته . ولعل فيما عرضنا له من نماذج ، وما سوف يلقانا بعد ذلك ما يصلح مثلاً لهذه الظاهرة ، غير أننا آثرنا الاختصار على ما سبق ، رغبةً في البعد عن التكرار .

وبناءً على ما تقدم يمكن القول أن العلاقة بين التجربة والإحساس هي المعول عليه في إقامة بناء لغوي للنص ، فحين تتصل التجربة بمشاعر الشاعر وأحاسيسه فتكسب لغة الصدق ؛ ينعكس ذلك على لغة الشاعر ، فتشف لغة مفرداته عن دلالات ومضامين ، تفسح عن ذلك الشعور الصادق ، وتلك التجربة الحقة ، فإذا كانت التجربة لم تتصل بمشاعر الشاعر وإحساسه ، وجاءت وكأنها مصطنعة ، يريد الشاعر أن يخلقها تخليقاً ، رأيت لغته بما تحمل من كلمات وتراكيب ، وقد فقدت قدراً كبيراً من الدلالات المشعة ، والإيحاءات التي قد لا تفي بالمضامين والمعاني التي يقصد الشاعر إلى تجليتها ، وما ذلك إلا لأن التكلف والتعمل مما يصيب اللغة بالجفاف والجمود ، الذي يجعل القارئ أو المتلقي لا يشعر بسرمان الحياة في جوانب اللغة ، ونبضها المنبعث من بين الكلمات .

و " تميم بن المعز - كما رأينا عنده صدق التجربة ، المنعكس بدوره على اللغة ، رأينا عنده أيضاً تلك التجربة التي تشعر فيها بالتكلف والتصنع ، والتي تشير لغتها إلى أننا أمام نص شعري يفتقد إلى صدق التجربة وحرارة العاطفة ، فكأن الحاجة أو المناسبة دعت إليه فلبى الشاعر تلك الدعوة ؛ بما ملك من موهبة وقدرة على الإبداع ، ومعلوم أن صدق التجربة يظهر أكثر ما يظهر في تلك التجارب المتصلة بالإحساس والمشاعر ، وأعني بذلك التعبير عن عاطفة الحب ، التي يبرزها الغزل أو التشبيب ، وقد رأينا لدى الشاعر تجارب متعددة ، تشير بلغتها إلى صدق عاطفة الشاعر ، وصدورها عن انفعال حقيقي، ومشاعر صادقة ، وفيها رأينا الشاعر وقد أخضع لغته لعاطفته ؛

لتقوم بمهمة نقل تلك العاطفة إلى المتلقي ، وذلك عن طريق تراكيب ومفردات ، يصوغها صياغة خاصة ، تعبر عن مقصوده ، وتحمل مراده إلى قارئه .
غير أننا لمسنا في شعر " تميم " عموماً ، وفي غزله خصوصاً من التجارب ما تشير لغة الشاعر إلى تكلفها واصطناعها ، وفي قصيدته التي يبدوها بقوله :-

تُرى الدَّهرُ يَشْفِي عَنِّي وكروبي وَيَسْمَحُ لي بعد النَّوى بحبيبي
حبيبٌ له قلبي ولي غيرُ قلبه رَمته النَّوى عني بسهم مُصيب (١)

ونحن نلاحظ تلك اللغة العادية التي لا تفرق بين شاعر وآخر، بل بين الشاعر وغير الشاعر ، فهي لغة تكاد تكون دارجة ، لا تتضمن ألفاظها ولا تراكيبها من الإيحاء ؛ ما يجعل المتلقي يعيش تجربة الشاعر، ويتفاعل معه ، ويتأثر بها ، فكلمات مثل " يشفي - عنتي - كروبي - حبيب - النوى - سهم - مصيب " في تركيبها هذا ، وسياقها الذي وردت فيه ، لا تشعر فيها بتلك الحياة التي يبعثها صدق التجربة ، وهذا ندركه من خلال رص الشاعر للكلمات رصاً ، فنحن نشعر بتكلفه من خلال محاولته الحثيثة لإيجاد الكلمة المعبرة ، والتركيب الدال على مقصوده . ويزداد الأمر وضوحاً حين نتقدم مع الشاعر في قصيدته ، فنرى ثقل التراكيب ، وربما اختلالها ، وكأن اللغة قد تفلتت من يد الشاعر، فأصبحت عصية عليه وها هو ذا يقول :

وما كان إلا مهجتي حازها الأسى وشمس نهاري آذنتُ بغروب
فمالي حبيبٌ بعده غيرُ ذكره ومالي أنيسٌ فيه غيرُ نحبي (٢)

فأنت ترى التعبير القلق في قوله : " وما كان إلا مهجتي حازها الأسى " والتعبير العادي المألوف في : " وشمس نهاري آذنتُ بغروب " ، ثم انظر إلى

(١) الديوان : ص ٦٥ .

(٢) الديوان : ص ٦٥ .

التقرير والتسجيل في قوله : " فما لي حبيب بعده غير ذكره وما لي أنيس فيه غير نحبي " فاللغة قد استعملت استعمالاً إشارياً محدوداً ، ولم تؤد دورها بوصفها أداة إحياء وإثارة ، فنحن لا نسمع تلك الكلمة التي تتصل بالشعور ، وتتبع من الإحساس المتوهج ، الذي يتطلبه مقام الحديث عن المحبوب ، ثم أين تلك العلاقة وهذا التفاعل بين الحبيب وحبيبه فيما مر بنا من أبيات ، وتنتهي القصيدة بإظهار الشاعر للشكوى إلى الله ، وإبراز قدرته على الصبر والتجدد على غياب الحبيب ، وذلك كله في أسلوب تقرير ، لا يشف عن مشاعر ملتهبة ، ولا يوحي بإحساس متقد :

إلى الله أشكو شكْوَ صبِّ مدَّهٍ خطوباً دَهنتي فيه بعد خطوب

سأصبر للأيام صبراً لعلها تعود بما أهواه بعد قريب (١)

وفي ظني أن هذه القصيدة وما يماثلها إنما جاءت من النوع الذي كثيراً ما يقصد إليه الشاعر العربي في مقدمة قصائده ، فهو غزل صنّعه المناسبة ، وجد الشاعر نفسه مدفوعاً إليه ، فأسرع بموهبته إلى تلبية نداء منهج القصيدة العربية .

على أن ذلك لا يعني أن شعر الغزل عند " تميم " قد كان كله كذلك ، فالقارئ لديوانه يلحظ أن أشعار المناسبات والتي تخلو من صدق التجربة ؛ كانت قليلة بالقياس إلى ما رأيناه في شعره من قدرة توفرت للشاعر على المواءمة بين لغته وعاطفته ، وربطه بين تعبيره ومواقفه الشعورية ربطاً وثيقاً ؛ يسمح للقارئ بالولوج إلى عالم الشاعر، وارتياح آفاقه المختلفة .

المبحث الثاني

التجربة والصورة الشعورية

في إطار العلاقة التفاعلية بين التجربة وعناصر النص تأتي الصورة عند "تميم"، فنلاحظ في استعماله لها قدرة على توظيفها لخدمة التجربة، حيث يستطيع الشاعر من خلالها نقل تجربته إلينا؛ لتستقر في أعماقنا، وتثبت في أذهاننا هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التجربة تؤدي دوراً واضحاً في قوة الصورة وضعفها، ومن ثم تبدو لنا تلك العلاقة التفاعلية التي أشرنا إليها آنفاً. ومن خلال قراءتنا لشعر "تميم" ندرك ذلك التفاعل بين الصورة والتجربة، وهو تفاعل تتشكل على أثره علاقة التأثير والتأثير بين هذين العنصرين، حيث يبدو صدق التجربة من خلال إشراق الصورة، كما تتبدى جماليات تلك الصورة من خلال قوة العاطفة، والتي بدورها تأتي انعكاساً لصدق التجربة، فهذا هو ذا يمدح أخاه "العزیز" فيقول :-

إذا رمت أن أنثي بما أنت أهله	من المدح أعيتني خصائل أربع
نوال إذا قلَّ النوال أفضته	ورأى كحدِّ السيف بل هو أقطع
وحلم إذا قلت حلوم ذوي النهى	وطاشت حجا ^(١) الأقوام لا يتضعضع
وإشراق أخلاق صفت في عذوبة	ورقت كما رقَّ الشراب المشعشع ^(٢)
وفي خصلة من هذه يغرِّق الحجا	وتغدو القوافي وهي حسرى ^(٣) وظلَّع ^(٤)

(١) حجا : العقل . أبو بكر الرازي : مختار الصحاح مادة (ح ج ا) .

(٢) شعشع: الشراب مزجه والمشعشع الممزوج أو المخلوط بالماء. نفسه مادة (ش ع ع)

(٣) حسرى : كليلة نال منها التعب والإعياء ، وحسر البعير: أعيا . أبو بكر الرازي :

مختار لصاح . مادة (ح س ر) .

(٤) الديوان : ص ٢٦١ .

يريد الشاعر أن يثني على أخيه ، وينشده مدحاً يليق به ، فتعجزه خصال الممدوح والتي لا يستطيع إظهارها مهما قال ، ومهما أنشد من قصائد ، فعطائه حين يقل العطاء ، ورأيه القاطع السديد الذي هو أمضى من حد السيف ، وحلمه الذي جاء في زمنٍ يندر فيه الحلم ، ثم إشراق أخلاقه التي صفت ورقته ، فهي أرق من الشراب المشعشع ، كل ذلك جعل قوافي الشاعر ترجع حاسرة ذليلاً ، تعلن عن عجزها عن استيفاء تلك الصفات ، فانظر كيف أسهمت الصورة في إبراز الفكرة ، وأعلنت عن صدق التجربة ، وهنا يمكن القول أن الصورة قد كانت مجرد أداة (تساعد على توجيه الفكر ، وإثارة الانفعال ، وهما الشيطان الأساسيان في تجربة القصيدة) (١) .

لقد انطبعت الفكرة في أذهاننا، وتمثلت التجربة في خاطرنا بفعل تلك الصورة؛ التي يبدو فيها رأي الممدوح أحد من السيف ، وهو تشبيه يقوم على تجسيد المعقول وتقريبه ؛ من خلال تشبيهه بالمحسوس ، ثم انظر إلى الأخلاق التي برزت ، وتمثلت أمامنا في صورة مشرقة ، فالاستعارة قد كان لها دورها في توضيح الصورة ، من خلال التشخيص الذي جعل الأخلاق إنساناً يمشي على الأرض ، وينتهي النص بهذا المنظر المثير ، فالقوافي إنسان يقدم على شيء ، ثم يعجز فيعود حاسراً ذليلاً ، لا يستقيم في سيره ، أرأيت صورة أكثر إثارة من هذه الصورة ؟ وخيالاً أبدع من هذا الخيال ؟ .

وفي موقف آخر يعيش الشاعر حالة من السعادة والغبطة ؛ فرحاً بالربيع الذي برز من حجابهِ، وذلك الجو الصحو الذي يبعث على البهجة، لذلك يدعو الشاعر نفسه وغيره إلى التمتع بالملذات ؛ التي حان وقتها فيما يرى:

(١) روستريفورها ملتون : الشعر والتأمل ص ٦٩ ، ترجمة د/ محمد مصطفى بدوي - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر أبريل ١٩٦٣ م .

تمتّع بالمسرة والشباب فقد برز الربيع من الحجاب
 فحُبك والزمانُ وأنت فيه شبابٌ في شبابٍ في شباب
 فحي على المدام بكفّ ساق يُدير الخمرَ من بردٍ عذاب (١)

ولتصوير هذا الجو وتلك الحالة التي يعيشها ، يستعين الشاعر بوسائل تصور تجربته أتم تصوير، ولعل الصور الجزئية بما تحتوي من تشبيهات واستعارات وكنايات هي أهم تلك الوسائل ، فها هو ذا يستخدم التشبيه الذي يصف ويصور كأحسن ما يكون التصوير، فالساقى الذي يدير المدام على الجالسين جميل ؛ يخلب جماله الألباب ، فيداه اللتان تحملان المدام تشبه وجنتيه في إشراقها :

كأن يديه حاكت وجنتيه بنارٍ يصطلي منها لهاب (٢)

إن تلك اليدين مع الوجنتين مع قلب الشاعر تشبه الشهاب ، غير أن وجه الشبه يختلف من المشبه الأول والثاني عنه في المشبه الثالث ، فاليدان والوجنتان تلتقي مع الشهاب في بريقه ولمعانه ، أما القلب فإنه يأخذ من الشهاب اشتعاله واتقاده ، لقد اصطفى قلب الشاعر وتحول إلى نار لرؤية هذا الجمال الباهر يقول :

يداه ثم وجنته وقلبي شهابٌ في شهابٍ في شهاب (٣)

ويلجأ الشاعر إلى التشخيص فيحول المعقول إلى محسوس ينبض بالحياة والحركة ، يعينه في ذلك تشبيهه ليس مبتكراً ، ولكنه معبر عن الحالة الشعورية التي يعيشها الشاعر، فالدنيا عروس كانت منتقبة مخبأة، فأبرزها الغيث الذي جاء ، فأظهر جمال الجو ، وجعله صحوً مشرقاً .

(١) الديوان : ص٥٧ .

(٢) نفسه : ص٥٧ .

(٣) نفسه : ص٥٨ .

لَعَمْرُكَ إِنَّمَا الدُّنْيَا عَرُوسٌ جَلَّاهَا الغَيْثُ مِنْ تَحْتِ النَّقَابِ
بَنَفْسِجُهَا وَنَرَجِسُهَا وَوَرْدٌ خِضَابٌ فِي خِضَابٍ فِي خِضَابٍ^(١)

إن الشاعر سعيد مسرور؛ لذلك رأى الجمال في كل شيء حوله ، وهو لا يريد أن يترك هذا الجمال إلا وقد تمتع به :

فَأَهْرِقْ مِنْ دَمِ الإِبْرِيْقِ رَاحاً فَإِنَّ الغَيْثَ مَمْنُوعُ السَّحَابِ
فِإِبْرِيْقِي وَكَأْسِي وَالْغَوَادِي سَحَابٌ فِي سَحَابٍ فِي سَحَابٍ^(٢)

ولا يزال الشاعر يتكى على التشبيه ، والمركب منه خصوصاً فإبريقه وكأسه وطيبه الذي يتطيب به والذي كثر حتى أشبه السحاب؛ كلها تلتقي في ذلك السحاب من أوجه متعددة، وتساعد الاستعارة ذلك التشبيه في إكمال الصورة ، وذلك عندما يطالب نديمه أن يريق دم الكأس ، وهي استعارة جديدة تحمل قدراً من الطرافة ، وتبعث الحياة في الصورة بما تودعه فيها من تشخيص ، لقد تحول الكأس إلى كائن حي، حل دمه ووجبت إراقته، هذه الإراقة تعني صب الخمر من ذلك الكأس ، وإفراغه تماماً ، فهي تشير فوق ما قدمنا إلى نهم الشاعر إلى الشراب ، ورغبته في احتساء الكأس حتى الثمالة، ثم ينهي هذه الحالة التي انتابته بإبراز رأيه فيها، يقول لنفسه وندمائه إننا إذا تمتعنا بكل هذا فنحن على صواب :

فَرَأَيْكَ ثَمَّ شُرْبُكَ وَالْغَوَانِي صَوَابٌ فِي صَوَابٍ فِي صَوَابٍ^(٣)

إنه يريد أن تدوم له تلك اللذة ، فلا يترك نفسه مكاناً للندم على ما قد يكون اقترفه من ذنوب ، وكأنه يريد أن يجد لما فعل تبريراً أو تعليلاً .

إن الصورة التي كان قوامها التشبيه والاستعارة قد كان لها روافد ؛ أعانتها

(١) الديوان : ص ٥٨ .

(٢) نفسه : ص ٥٨ .

(٣) نفسه : ص ٥٨ .

على تصوير الجو المحيط ، والحالة التي عاشها الشاعر أرأيت إلى هذه الألفاظ السهلة البسيطة ، من مثل : الشباب - الربيع - السحاب - الصواب وغيرها ، هذا بالإضافة إلى النعمة السريعة المتراقصة ، والتي تظهر أكثر ما تظهر في تكرار اللفظ، والذي جاء في أكثر من بيت " شباب في شباب في شباب " ، " شراب في شراب في شراب " ، " سحاب في سحاب في سحاب " ، هذا بالإضافة إلى تفعيلة بحر الوافر (مفاعلتن مفاعلتن مفاعل) ، وهي تفعيلة تشعرك بسرعة التنقل بين المشاعر ، وخفة النغمات التي تعبر عن حالة شعورية لا تكاد تهدأ لشدة طربها ، واستخدام الشاعر لهذه الوسائل يفصح عن تجربته ، ويعلن عنها في سفور، فالشاعر يدعو في قصيدته إلى التمتع بالمسرة والشباب ، ويصف ساقيه مستهيناً بعداوة العذال في حبه له ، وتهيوّ الجو الصحو للشراب ، فالشاعر صاحب نفس متفتحة للحياة ، وهذا نابع من ظروفه ، وحياته العامة والخاصة ، فشاعرنا نشأ في كنف خلافة شابة فتية؛ توسع سلطانها وتمدد في اتجاهات عدة ، وهو وإن حرم الخلافة فحياته بين أب خليفة أو أخ خليفة لم تتقلب بهما الأيام والمحن ، فعاش ألوان النعيم ، وتقلب في جنباته ، لذلك سجلت هذه القصيدة لحظة مشرقة من لحظات حياته ، وصورت حالة من النشوة والبهجة من خلال وسائل فنية متعددة (١) .

ينفعل الشاعر بالتجربة ، فتمس مشاعره وأحاسيسه ، ويندمج فيها حتى لا يكاد ينفصل عنها ، ومن ثم تنعكس تجربته على الصورة الشعرية في إبداعه ، فنرى الصور وقد تتابعت صورة بعد صورة ، فمن استعارة إلى تشبيه إلى كناية ، ومنها ينطلق إلى صورة كلية تمثل إحساسه وحالته الشعورية ، فـ " تميم " يعيش ليلة من اللهو والمجون ، يتمتع فيها بالخمير وساقياها ، ثم هو بعد ذلك يعيش حالة من الصفاء والمتعة ، قد انعكست عليه من خلال طبيعة صافية ، وجو

(١) انظر : أحمد سيد محمد : نقائض ابن المعتز وتميم بن المعز ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

ملائم لما هو فيه من سرور ومرح .

وتكاد تشعر في أبياته بتفاعله مع الطبيعة ، وهو ما يتجلى في سعادته بها ، وتجاوبه معها ، والقصيدة التي تحت أيدينا تشير إلى ما قلناه في وضوح ، فالصورة الجزئية تغشاها من أولها إلى آخرها ، نرى في طليعتها الكناية حين يتحدث عن الخمر يقول :

وزنجية الآباء كَرخيّة الجلب عبيريّة الأنفاس كرميّة النسب^(١)

فخمرة معتقة أصيلة ، إذ هي زنجية الآباء ، أتى بها من الكرخ ، وهو حي ببغداد شهر بهذا النوع من الخمور، وطالما عرف بكثرة الحانات ، وتعدد دور اللهو، وليس ذلك وحسب بل هي من عصير العنب ، فهي كرميه النسب ، ويصف إناؤها ، وانسكاب الخمر منه ، والألوان التي تبديت من خلال سكبها يقول :

كُميت بزنا دنّها فتفجّرت بأحمرّ قانٍ مثل ما قَطِرَ الذّهَبُ^(٢)

وبشرها تتبدل حالته ؛ ليصبح سعيداً سروراً ، حتى كأنه لم يشرب خمرا ، بل شرب كأساً من السرور واللهو واللعب .

وجمال الصورة يبدو في تحويل المعقول إلى محسوس ، وهو ما يعرف بالتجسيد ، لقد أدخل السرور واللهو واللعب في المذوقات ، فجعل منها شيئاً يشرب ويتذوق ، وهو ما يعرف بالصورة التذوقية يقول :-

فلما شربناها صَبَوْنَا كأننا شربنا السرورَ المحض واللهو والطرب^(٣)

فالجمع بين التشبيه والاستعارة في البيت قد رفع من درجة الخيال ، وجعلنا نتصور أن الشاعر يعيش في عالم غير الذي نحياه ، عالم تتحول فيه هذه المعقولات إلى أشياء حسية ، تتذوق بل تشرب .

(١) الديوان : ص ٦٢ .

(٢) نفسه : ص ٦٢ .

(٣) نفسه : ص ٦٢ .

وما أجمل هذا الاحتراس ، فالشاعر الذي عب من الخمر لم يذهب السكر مجده المكتسب من الآباء والجدود، ومن صفات اتصف بها تؤهله للمجد ، يقول : " وَلَمْ نَأْتِ شَيْئاً يَسْخَطُ الْمَجْدَ فَعَلَهُ " ، غير أن سعادة الشاعر وطربه تجعله يعود فيقول : " سوى أننا بعنا الوقار من اللعب " ، وكأنه يرى أن بيع وقاره من اللعب لا يذهب بمجد أهله ، إذ هو متعلق به ، أو كأنه أمر لحظي ما يلبس أن ينقض ، والاستعارة التي تمثل الصورة الجزئية في البيت تعد جديدة في بابها ، تحمل قدراً من الطرافة والابتكار، ففي جعله من الوقار سلعة تباع وتشتري ؛ إشارة لطيفة إلى أن الوقار هو شئ ليس بالهين ، فقد يشتري بأعلى الأثمان هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إشارة إلى شدة ما استبد به من سعادة وطرب جراء هذه الخمر ؛ التي استكملت صفات الكمال ، قد جعله يبيع ذلك الوقار دونما حرص ولا حرج ، ويستكمل وصف كأسه وساقبها لينتهي إلى وصف حالته التي أصبح عليها ، فنراه يتفاعل مع الطبيعة ، يشعر بها ، وتشعر هي به ، فالشمس عطشى إلى الخمر ، يحس بها الشاعر، فيسارع إلى إطفاء غلتها ، ويلاحظ ذلك الليل فيسكن في مكانه ، فلا يكاد يتحرك حتى لا يقطع ما يعيشه الشاعر ؛ وشمسه التي تفاعل معها من لحظات النشوة والسرور يقول :

فَبِتْنَا نَسْقِي الشَّمْسَ وَاللَّيْلَ رَاكِدًا وَنَقْرُبُ مِنَ بَدْرِ السَّمَاءِ وَمَا قَرُبُ^(١)

إن ما يعيشه الشاعر من حالة شعورية جعلته يحلق في سماء الخيال ، لقد ارتفع عن الأرض ليقترب من البدر على بعده الشديد ، ولعل اقترابه من البدر إنما يعني به التمتع بضوئه على ما بينهما من بعد المسافة ، وهذا يقترب مما قاله البحري في وصف ممدوحه :

دَانَ عَلَى أَيْدِي الْعَفَاةِ وَشَاسِعٍ عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي الْعُلَا وَصَرِيْبِ

كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَضَوْوُهُ لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جَدُّ قَرِيبٍ^(١)

ويستكمل وصف الجو المحيط به حينئذٍ ، فالغيم قد ستر الهلال الذي يبدو من خلفه كأنه وجه جميل يتطلع إليه ، وأما كوكب الثريا فهو يبدو في ظلام الليل كأنه حبات البلور ؛ التي تتناثر في الأفق ، فتزيده جمالاً :

وَقَدْ حَجَبَ الْغَيْمُ الْهَلَالَ كَأَنَّهُ سِتَارَةٌ سَرَبٍ خَلْفَهَا وَجْهٌ مَنَّ أَحَبُّ

كَأَنَّ الثَّرِيَّا تَحْتَ حُنُكَةِ لَيْلِهَا مَدَاهِنُ بَلُورٍ عَلَى الْأَفْقِ يَضْطَرِبُ^(٢)

وفي هذا الجو العامر بالمتعة ، وفي ذلك الليل الذي استكمل صفات البهجة ، يصور الشاعر ما هو عليه وما عاشه في تلك الليلة ، فهو يناجي البدر ، والبدر بدوره قد أصبح نديمه ومسامره ، وهو ما يرفع درجة اللذة والمتعة عنده ، والتي تزداد بشرب الخمر من فم عذب قد لثمه طوال الليل :

فَبِتُّ أَنَا جِي الْبَدْرَ وَهُوَ مُنَادِمِي وَأَشْرَبُ بِاللَّثَمِ الْعُقَارَ مِنَ الشَّنْبِ^(٣)

وقد بقي الشاعر على هذه الحالة حتى فتك الصبح بالليل كفتك " العزيز " بأعدائه :

إِلَى أَنْ رَأَيْتَ الصَّبْحَ يَفْتِكُ بِالذُّجَى كَفْتِكَ أَبِي الْمَنْصُورَ بِالرُّومِ وَالْعَرَبِ^(٤)

إن تتابع الصور في هذا النص قد وضعنا أمام الحالة الشعورية التي عاشها الشاعر ، فقد صور لنا الليلة التي عاشها بأحداثها وأجوائها ، وكل ما يتصل بها ، إذن فنحن أمام لوحة فنية استطاع الشاعر رسمها من خلال صدق تجربته ، واتصالها بمشاعره

(١) ديوان البحري ص ١٧١ - الجزء الأول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة

الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

(٢) الديوان ص ٦٢ .

(٣) الشنب : الحدة في الأسنان ، وقيل : برد وعذوبة . أبو بكر الرازي : مختار الصحاح

مادة ش ن ب . والبيت بالديوان ص ٦٣ .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٦٣ .

وأحاسيسه ، ومن ثم سخر الصور الجزئية ، وجعل منها خطوطاً أسهمت في رسم تلك اللوحة ، وإذا أردنا مثلاً لصوره الكلية المتكاملة ؛ التي تصور لحظة من اللحظات التي عاشها الشاعر في تلك الليلة ؛ رأينا تلك الصورة وقد تكاملت في البيتين الأخيرين ، فهو في سرور وطرب يناجي البدر ، والبدر ينادمه وهو مع ذلك يشرب أجمل الخمر من بين تلك الأسنان التي تفيض بالماء العذب ، إنه يلثم الشنب ، فيعيش حالة من النشوة حتى يفتك الصبح بالليل ، وهي إشارة إلى قسوة ذلك الصبح على الشاعر ، حيث قطع عليه لذته ومتعته ، لذلك رأى في قدوم الصبح ، وإزاحته لليل فتكاً به ، وكأنه رأى في قدوم الصبح على الليل قتلاً له ، وهو ما يمثل قتلاً للشاعر نفسه .

ونقلب ديوان الشاعر ، فنشعر بحبه للطبيعة ، وكلفه بها ، ومن ثم إبداعه في تصويرها ، إن ما نراه عنده من تناول لمفرداتها بالتشخيص حيناً ، والتجسيد أحياناً يؤكد مدى تعلقه بها ، واحتضانه له ، لذا نرى التشبيهات المبتكرة ، والاستعارات الطريفة ، وقد توالفت وتتابعت بطريقة تشير إلى عدم تكلفها واصطناعها ، ففي قصيدة له يبدو غرام الشاعر بالطبيعة ، رأينا الصور تتلاحق وتتابع ، مرتكزة على التشبيه بأشكاله وتنويعاته ، يقول واصفاً الليل ، وحركة النجوم فيه ، وصراعه مع الصباح ، والحالة التي عليها كلاهما :

كأنّ الثريّا والظلامُ يحثُّها فصوصٌ لجينٍ قد أحاط به سبجٌ^(١)

كأنّ نجومَ الليل تحت سواده إذا جنّ زنجيٌّ تبسّم عن فلجٍ^(٢)

كأنّ رقيق الغيم والبدرُ تحتَهُ زجاجٌ على كفٍّ من الصبح منتسجٍ^{(٣)(٤)}

ففي البيت الأول يصور كوكب الثريا وقد أحاط به الظلام ، فيشبهه بفصوص الفضة

(١) سبج : الخرز الأسود - أبو بكر الرازي - مختار الصحاح مادة س ب ج .

(٢) الفلج في الأسنان : تباعد ما بين الثنايا والرباعيات . نفسه مادة ف ل ج .

(٣) منتسج : مصنوع من نسج الخيط إذا ضم بعضه إلى بعض ، والريح تنسج رسم الدار والتراب والرمل والماء إذا ضربته فانتسجت له طرائق كالحبك لسان العرب مادة نسج (ن . س . ج) .

(٤) الديوان ص ٨٦ .

المطرزة بالخرز الأسود ، ثم يشبه النجوم في الليل المظلم الذي يغمرها بسواده بزنجي شديد السواد؛ إذا تبسم بدت أسنانه البيضاء لامعة، وتلك تشبيهات يغلب عليها الطابع العقلي ، ذلك أنها من قبيل التشبيهات المركبة ، التي تتطلب من مبدعها قوة الملاحظة، وتوهج العاطفة، وسرعة الاستجابة للانفعالات الداخلية ويستكمل الشاعر لوحته ، فيصور السحاب وقد بدا البدر تحته بضوئه وجماله ، فيشبه بزجاج على كف من الصبح المتبلج المشرق ، فكأن الصبح قد نسجه منه كف حملة زجاجاً أبيض لامعاً، فالتشبيه الطريف قد تآزر مع استعارة أشد طرافة ، وهي نسج الكف من الصبح ؛ ليمثل ذلك المشهد الطبيعي الجذاب ، وينطلق من هذه الصورة التي كان الصبح أحد أطرافها ليصف صراع ذلك الصبح مع الظلام ؛ الذي طغى عليه ، وحجب جماله عن الناظرين ، فتراه وقد صور الصبح في محاولته للظهور ، وقد طغى عليه الظلام ، وكأنه يحاول منعه - يشبه تلك الحالة بصفيحة سيف بيضاء لامعة قد علاها الصداً وغطاها بسواده :

كأن عمود الصبح في غُبر الدُجى صفيحةً سيف قد تصدًا من المُهَج (١)

وتلاحق هذه الصور وتتابعها ، ودقة التشبيهات وصحتها ، إنما تشير إلى صدق في التجربة ، يمثله غرام الشاعر بالطبيعة ، وحبها وذوبانه فيها ، بالإضافة إلى سعة خيال تعينه على تخليق صور جزئية ؛ تتكامل فتصنع لوحة فنية ، أو صورة كلية ، إذ الخيال (هو الذي يخلق الصورة الشعرية ، جزئية كانت أو كلية ، ثم هو الذي يمد هذه الصورة بالطاقة اللازمة لها ؛ كي تتحرك وتحقق أهدافها الفنية ، ولولاه لعجزت لغة الشعر - مهما كانت راقية - عن أداء التجربة الشعرية) (٢) .

وهذه القدرة على التخيل ، المتصلة بحب الشاعر للطبيعة ، وانفعاله بها نلاحظها في كثير من شعره ، ففي موقف آخر نرى الشاعر وقد أقبلت عليه من تقدم له المدام ، ووجهها المشرق الجميل قد تغطى بالحرير ،

(١) الديوان ص ٨٦ .

(٢) د / عبده عبد العزيز قفيلة : التجربة الشعرية عند ابن المقرب ص ٦٩ .

وهي تحمل بين يديها خمراً قد تنقب بالزجاج ، فهو يصور تلك الحالة ،
ويشبهها بالقمر المتواري خلف النقاب يقول :

نَقَبْتُ وَجْهَهَا بَخَزٍ وَجَاءَتْ بِمُدَامٍ مَنَّقَبٍ بِزَجَاجٍ
فَتَوَهَّمْتُ فِي النَّقَابِينَ مِنْهَا قَمراً طَالعاً وَضَوْعَ سِرَاجٍ (١)

وينتشي الشاعر لهذا المنظر ، ويعب من ذلك المدام ، فيتبدى له
جمال الكون ، حيث غلب الصباح بضوئه الظلام بسواده ، فهو يطلب من
صاحبيه أن يشاركاه هذه الرؤية ، ويشير لهما إلى الأفق ، الذي قد تبدل
من ظلام دامس إلى ضوء لامع ، لقد تقلد الأفق بالعاج الأبيض البراق بعد
أن كانت قلاذته من الأبنوس الأسود ، الذي لا يظهر جمال الأفق ، ولا
يتبدى من خلاله جمال الكون يقول :

وانظر الأفق كيف قلده الإصـ باح من بعد آبنوسٍ بعاج (٢)

والشاعر الموهوب هو الذي يمكنه خياله من تجسيم التجربة ، وتصويرها في
المواقف المختلفة ، فإذا كان " تميم " قد أبدع في الإعلان عن تجربته ؛ عن
طريق تصوير مواقف الفرح ، وأجواء البهجة ؛ فإن موهبته لا تقف به عند ذلك ،
فها نحن أولاء نراه وقد استبد الحزن بنفسه، وتزاحمت عليه النكبات ، فشعر
بضيق شديد نحو هذا الدهر، الذي اعتقد أنه سبب بلائه، ومصدر حزنه ، ومن ثم
يجرد منه إنساناً يخاطبه ، بل يشتكي أفعاله ، ويعلن تبرمه به ، وغضبه عليه ،
حتى ليجعل من الله (ﷻ) حكماً بينهما ، وكأن الشاعر لم يجد مخرجاً له من
أفعال ذلك العدو القاسي في حربه إلا اللجوء إلى ربه للفصل بينهما يقول :

يا دهرُ كم يشتد حربُك ويكُـر بالنكبات خطبُك

(١) الديوان ص ٨٧ .

(٢) نفسه ص ٨٧ .

ما بال جورك لا يفِي — ق ولا يَلين علي قلبك
عاصيتني حتى لقد — أوهمتني أني أحبك
يا دهرُ ما ذنبي الي — ك وقد تعاضمَ في ذنبك
بيني وبينك في الذي — أوليتني ربي وربك (١)

لقد شكل التجريد وعاء للتجربة ، ومثل وسيلة من أنجح الوسائل للإفشاء بذات النفس ، والشاعر من خلالها نجح في إفراغ شحنة شعورية ضاقت بها نفسه ، وتزاحمت على صدره ، حتى كادت تعصف به ، وفي تجريد الشاعر من الدهر إنساناً يحدثه دلالات في طبيعتها : أن الشاعر يعيش حالة من الوحشة ، فكأنه لم يجد من يفضي إليه ، ومن ثم لجأ إلى الدهر، رغم أنه ليس الصديق الوفي ، بل هو من كان سبباً في مأساته وحزنه ، إنه يبدأ حديثه مع الدهر بصيغ لينة حتى كأنه يستعطفه

يا دهرُ كم يشد حربُك — ويكر بالانكبات خطبُك

إن جورك لا ينتهي، وقلبك لا يرق لي ، إنها لغة استعطاف ، وعبارات تودد ، لقد خدعتني فتوهمت أني أحبك ، والحق أنك دائماً تطعني من الخلف ، وتتصاعد اللهجة ، ويزداد الضيق فيقول : اني لا ذنب لي ، ولم أفعل ما يستوجب كل ما تفعله بي :

يا دهرُ ما ذنبي الي — ك وقد تعاضمَ في ذنبك

إنني أحتكم إلى الله ، وهو ربي وربك ؛ كي يفصل بيننا ، وهنا يبدو أن الشاعر لم يجد في حديثه مع الدهر ما يشفي نفسه، وينقع غلته، لذا فر إلى ربه ، لعل ذلك يخفف حزنه ومصابه ، ولا يقف التجريد في شعر " تميم " عند حد تشخيص الدهر وأسنته ، بل نراه يلجأ إلى الطبيعة ، فيختص منها ما يصنع منه

إنساناً يحدثه ويلقي إليه بخاصة نفسه ، وما هو ذا مجرد من الطير شخصاً يبثه آماله وآلامه ، يستوقف الطير ليحدثه عن ما بعثه في نفسه ، وما أثاره في مخيلته من هواجس :

ألا أيها الطيرُ الموافي لقد أطلقتَ من فكري سَراحي
تذكرتَ الزمان وما دهاني به من حادثِ القَدَرِ المَتاحِ^(١)

ويحكي لذلك الطائر ما أحدثه مروره به ، وتصفيقه بالجناحين فيقول : إنه لما أحاطت بي الذكريات ، وغاب عقلي في الماضي ، وذهب في مذاهب شتى ، وغرقت في بحر من التفكير عميق ، أيقظني صوتك ، وتصفيق جناحك ، وكأني نومان أيقظه الصياح .

فلما غاب في التذكار فهمي وحسي حيث تصفّق بالجنّاح
فطيرٌ حسّ ريشك سكرٍ حسي كنومانٍ يُنبّه بالصّياح^(٢)

لقد تذكر الشاعر ما ألم به من بلاء ، وما أصابه من نكبات ، وكان ذلك الطائر هو من هيج في نفسه تلك الذكريات، لذلك ما إن أفق الشاعر من غيبته في الماضي حتى عاد إلى حاضره، ليتوجه إلى الطائر الذي يسبح في الرياض الأنف، يعيش أسعد اللحظات مع إلفه الذي لا يفارقه ، وهنا تهب على الشاعر ذكريات أخرى ، يستحضرها برويته للحالة التي عليها الطائر وإلفه ، وكأنه قد فقد حبيباً لا سبيل إلى رجوعه ، ومن ثم يوجه حديثاً إلى الطائر، تشعر من خلال لغته بحسد الشاعر له من ناحية ، وتحسره على نفسه من ناحية أخرى .

تروح بروضة أنفٍ وتضحى وإلفك حاضرٌ وهواك صاحي

إنك فرح مسرور ، تمرح في أودية فسيحة ، ذلك أنك لم يصبك ما أصابني .

(١) الديوان صـ ٩٤ .

(٢) المصدر السابق نفسه صـ ٩٤ .

ولو لاقيتَ ما ألقى لضاقتُ عليك مَوارِدُ البِيدِ الفِصاح

ويلجأ الشاعر في النهاية - كما هي العادة عند استخدامه للتجريد - إلى الله كي يفرج ما هو فيه، وكأنه قد استشعر ما كان يعيشه من خيال ، وأن حديثه إلى الطير أو الدهر ما هو إلا ضرب من الأحلام ، أو وسيلة ينفس من خلالها عما ضاقت به نفسه ، ومن ثم يعود إلى واقعه ، فلا يجد إلا ربه ، يفرج عنه كربته.

لعلَّ الله يَفْرِجَ ما ألقى ويأخذ للمِراضِ من الصَّحاح

وواضح أننا أمام لوحة فنية ، وصورة كلية ، بناها الشاعر على الخيال من أولها إلى آخرها ، هذا إذا استبعدنا البيت الأخير من المقطوعتين اللتين شكلتا مثلاً للتجريد ، ومع ذلك فلسنا نقول إن البيت الأخير منفصل تماماً عن النص ، بل هو بمثابة النهاية ، أو لحظة التنوير في القصيدة ، فيه يعود الشاعر من تهويمات الخيال إلى القصيدة رحاب الواقع .

وبالإضافة إلى تلك القدرة على التخيل والتي شكلت الأساس الذي بني عليه الشاعر صورته الكلية ؛ تأتي الصور الجزئية بأشكالها المختلفة من استعارة وتشبيه وكناية؛ لتصنع مع الألفاظ ورقتها ومناسبتها للمعنى لوحة فنية متكاملة ، تأخذ بالألباب ، وتجذب إليها الأفئدة . وقد يبدو الشاعر مجاوزاً للواقع في نظر متلقيه ، لكن قدرته على التخيل ولغته التصويرية تجعلنا نعيش معه في عالمه المتخيل ، انظر إليه يقول عن ليلة قضاها مع محبوبة :

بنتا عناقاً ولثماً	وضمَّ نحرٍ لنحرٍ
وقد شفى الحبُّ منا	غيلَ صدرٍ بصدرٍ
وقد مزجنا اعتناقاً	مزاجَ ماءٍ بخمرٍ
ريقاً بريقٍ برُودٍ	عذبٍ وثغراً بثغرٍ

مُعَانِقاً غُصْنَ بَانَ وَلَاثِمًا ضُوءَ بَدْرِ (١)

إنها صورة كلية تتناول الحدث من بدايته وحتى نهايته ، متكئة على صور جزئية أسرة، وخيال فضفاض مخلق، استطاع تجسيم التجربة ، وتصوير أحداثها في جلاء ، وقد كانت مشاعره من القوة والتحفز بحيث تستجيب لخياله ، لذلك (أحسنا في أدبه بما نسميه الصدق ؛ إحساساً لا يقل قوة عما يمكن أن يثير فينا نفس الشاعر أو الأديب ؛ فيما لو حدث وتحدث عن تجربة واقعية) (٢) .

وتتأكد علاقة الصورة بالتجربة عند " تميم " عندما نطالع قصائد نلاحظ فيها ازدواج التجربة أو تعددها، ومن خلال قراءتها يبدو لنا أثر التجربة في الصورة، ودور الشعور والإحساس في تشكيل خصائصها ، وهو ما يلقانا في تلك القصائد التي يمدح فيها أخاه ، أو يتناول قضية سياسية تتعلق بدولته أو أسرته ، ويقدم لغرضه الرئيس بمقدمة قد تكون غزلية أو عاطفية ، وهنا ندرك ما بين التصوير في المقدمة وذلك الغرض الرئيس من خلاف ، فإذا أخذنا قصيدته الرائية مثلاً رأيناه يقول في مطلعها :

أي ربع لآل هند ودار

جداك الغيث من محلة دار	وثوى فيك كل غادٍ وسار
حكمت بعد قاطنك الليالي	في مغاني ربك بالإقفار
ورمتك الخطوب منهم ببين	ورحيل القطين (٣) موت الديار
فاسقياها الدموع إن بخل الغيب	ث عليها بواكف مدار

(١) الديوان ص ٢٢٠ .

(٢) د / محمد مندور - الأدب ومذاهبه ص ١٦، ١٧ .

(٣) القطين : القائمون بالمكان ، وقطن بالمكان : أقام به وتوطنه ، فهو قاطن والجمع قُطَان وقاطنة وقطين - الرازي مختار الصحاح مادة ق ط ن .

ليس للدمع إن تأخر عذراً فدعاه فيها خليع العذار^(١)

ف " تميم " يقف على الأطلال كما وقف سابقوه ، فبكي واستبكي ، وتذكر أهلها الظاعنين ، ورأى إقفارها بعد عمران ، ومن ثم طلب من صاحبيه أن يسقياها بالدموع إذ كان الغيث قد بخل عليها بالسقيا .

مشهد متكامل وصورة كلية تشكلت من خلال صور جزئية ، وينتقل الشاعر

إلى مشهد آخر ، فيصور ناقته جرياً على مذهب السابقين أيضاً يقول : -

وخنوف^(٢) عيرانة^(٣) عنتريس^(٤) عيسجور^(٥) شملة^(٦) ميسار

تصل الوحد بالذميل إذا ما خان أمثالها بني الأسفار

من بنات الجديل وهي من السر عة معدودة من الأطيوار

أكلت لحم زورها ذلك الذي ل ووصل الرواح بالإبكار

ترتمي مجهل المهامه مني بقليل الكرى قليل الحذار^(٧)

فهو يرسم صورة كلية لناقته التي أعدها لدخول حلبة السباق ، والصورة

تتكون من مجموع الصور الجزئية التي تؤدي في النهاية إلى وصف كلي شامل

للسباق ، فهي من النوق التي تميل برأسها إلى رакبها كأنها تحنو عليه ، فهي

(١) الديوان ص ١٨٥ .

(٢) الخنوف : الناقة تميل إلى رакبها برأسها ، وخنف البعير : قلب في مسيره ، أو لوي أنفه

من الزمام ، أو هو إمالة رأس الدابة إلى فارسه في عدوه . القاموس مادة (خ ن ف) .

(٣) عيرانة : التي تشبه العير في سرعتها ونشاطها ، والعير :- الحمار وغلب على

الوحشي ، والعيرانة من الإبل : الناجية في نشاط . القاموس مادة (ع ي ر) .

(٤) عنتريس : الناقة الغليظة الوثيقة . القاموس مادة (ع ت ر س) .

(٥) العيسجور : الناقة الصلبة والسريعة . القاموس مادة (ع س ج ر) .

(٦) شملة : السريعة . القاموس مادة شمل .

(٧) الديوان ص ١٨٥ .

تشبه العير في سرعتها وهي مع سرعتها قوية الأعضاء ، وتحمل السير في الفيافي والقفار ، وهي تشبه النعام في نظام مشيها ؛ إذ ترمي بقوائمها سرعة ، وهي مع ذلك تمشي مشياً لينا لا يرهق راكبها ، وهي سائلة الجديل وشدقم (فحلان من الإبل للنعمان ابن المنذر) وليس ذلك وحسب ، فهي في سرعتها تشبه الطير لقد أضناها السير ليلاً ، وأنحفها الارتحال في الرواح والإبكار ، فهي لا تكاد تهدأ . فإذا قارنا هذه الصور بما جاء في بقية القصيدة فلا (نعثر في بقية النص على شيء ذي قيمة ، اللهم إلا بعض الأساليب المجازية التي فقدت إحياءها لوضوح دلالتها) (١) ، من مثل قوله في حديثه عن الإمام " علي " :

واسألوا يوم بدرٍ من فارسُ الإسـ لام فيه وطالبُ الأوتار

اسألوا كلَّ غزوة لرسول الـ له عمّن أغار كلَّ مغار (٢)

وواضح أن تعدد التجربة كان له أثر في الصورة قوة وضعفاً ، فقد رأينا إبداعاً في التصوير ، حينما كان الغرض هو التعبير عن مشاعر خاصة ، تتصل بنفس الشاعر في حين نرى ضعفاً في الصورة عندما عالج الشاعر قضية عامة تتصل بالفكر والعقل ، ولعل الشاعر قد استغرق في تجربته الأولى في القصيدة ، وهو ما (استنفذ طاقته الشعرية من جهة ، واستقطب قوة وحماسة الاندفاع الأولى من جهة أخرى ، حتى إذا ما وصل إلى غايته من النص فترت حميته ، وضعفت عزيمته ، بعد أن تطهرت نفسه من كبت عواطفه المشبوبة ، التي أفرغها في الجزء الأول ولم يعد أمامه إلا أن يناقش مناقشة فكرية ؛ لا تعتمد كثيراً على أساليب التصوير الشعري) (٣) . ونطالع شعر " تميم " فنلاحظ صخباً و عنفاً يتصل بصوره ، وهو ما كان للتجربة أثر فيه ، فها هو ذا يصف

(١) أحمد سيد محمد : نقائض ابن المعتز وتميم بن المعز ص ١٤٣ .

(٢) الديوان ص ١٨٨ .

(٣) أحمد سيد محمد : نقائض ابن المعتز وتميم بن المعز ص ١٤٣ .

الساقية فيقول :

جرى دمعها جرى دمع المحبّ وناحت بصوت نواغيرها (١)

فجريان الدمع من الصور البصرية ، وصوت النواغير هو من الصور السمعية التي تجذب آذان السامع ، فتثير انتباهه ، وتتأزر الصورتان ؛ ليتجلى من خلالهما الموقف الشعوري لتميم ، والذي يبدو كموجه واضطرابه من خلال تلك الصورة الصاخبة :

ومُنْبَحَسِ الْقَطْرِ مُتَعَجِّرٍ (٢) جهير الرّواعد صخّابها (٣)

إن الألفاظ " منبجس ، متعجر ، الرواعد ، صخاب " تحمل من العنف والقوة ما يشير إلى صخب الصورة، ورغبة الشاعر في إثارة متلقيه من ناحية ، والتعبير عن انفعاله من ناحية أخرى ، وواضح أن صخب الصورة وعنفها يرتبط عند الشاعر بتصويره للطبيعة ، انظر إليه يقول :

أرقت لبرق أضاء الدجون وأذهب حُكْمَةَ أَطْنَابِهَا

سرى والدُّجْنَةُ منشورةً فمزقَ أعلامَ أثوابها (٤)

وتأخذ الصورة الطابع العقلي أحياناً عند " تميم " ، فنرى في شعره ذلك الشكل التصويري الذي يطلق عليه الصورة البرهانية ، وهو أسلوب يستخدم الشاعر فيه طريقة المناطقة في اعتمادهم على النتائج المبنية على المقدمات ، وهو ما يلقي بظلاله على التجربة فيغشاها نوع من الجمود ، وضعف الخصوبة والثراء ، ومن أمثلة هذا الشكل التصويري ما قاله في مدح أبيه :

(١) الديوان ص ١٦٥ .

(٢) متعجر : المتعرج: السائل من الماء ، أو دمع والمتعجرة من الجفان : التي يفيض ودكها . القاموس مادة (ث ج ر) .

(٣) الديوان : ص ٧٩ .

(٤) نفسه : ص ٧٨ .

قَصْرَتْ إِنْ خَلَّتْ نَدَاكَ الْبَحْرَا وكيف يحكي المستطابُ المرأاً^(١)

وهكذا بدا لنا من دراسة الصورة في شعر " تميم " تلك العلاقة التفاعلية بينها وبين التجربة ، فقد كانت الصورة إعلاناً عن تجربة الشاعر ، ووسيلة قوية لتجليتها وتوضيحها ، كما كان للتجربة أثرها في الصورة قوة وضعفاً ، تأكد لنا ذلك من خلال قصائد رأينا فيها ازدواج التجربة وتعددتها ، وقد أثر ذلك على الصورة فاختلقت باختلافها ، وتعددت بتعددتها ، كما بدا لنا أن خيال الشاعر قد كان من السعة والقوة بحيث أدى دوراً في صناعة الصورة وتخليقها ، وقد أجاد الشاعر في استخدام الألوان بوصفها وسيلة من وسائل تقويتها ، فرأينا صورته وقد صبغها بألوان تناسب التجربة ، وتعبر عن الموضوع . وفي صورته رأينا سواد الليل ، وزرقة السماء ، وبياض النهار، وصفرة الضحى حيث يصطبغ بألوان الذهب حين تخالطه أشعة الشمس ، كما رأينا حمرة الدم والورد ، وقد ربطهما الشاعر بحمرة الخد ، فوظف ذلك كله في خدمة الموقف الشعوري ، وإتمام الصورة المرادة ، وأخيراً فقد استوعبت موهبته أشكال الصورة المختلفة ، فرأينا في شعره الصورة الكلية ، والصورة التشخيصية ، والصورة التجسيدية ، والصورة التجريدية، والصورة النفسية، والصورة البصرية ، والصورة السمعية ، والصورة التذوقية ، مع تفاوت في استخدام الأشكال المختلفة حسب الموقف والحالة الشعورية ، وفي دراستنا لشعر " تميم " رأينا نماذج لهذه الأشكال ، لذا لا نرى داعياً للإطناب في عرض أمثلة ونماذج أخرى .

(١) الديوان : ص ١٨٤ .

المبحث الثالث

التجربة والموسيقى

لا شك أن للموسيقى دورها في تجلية الشعور ، والإعلان عن أحاسيس المبدع ، ومن ثم إخراج تجربته الكامنة في نفسه إلى حيز الوجود ، وكذلك ينعكس الشعور على موسيقى النص ، فالإحساس الباكي الحزين يطبع النسق الموسيقي بطابعه ، والشعور الفرح السعيد يلقي بظلاله على هذا النسق ، ومن ثم فالعلاقة بين التجربة والموسيقى هي علاقة تفاعلية بحيث تؤثر كل منها في الآخر، وإذا طالعنا شعر " تميم " وجدنا النص الشعري عنده ؛ وقد تأثر في شكله الخارجي بالتجربة قوة وضعفاً ، فنرى التجربة وقد انعكست على الموسيقى بنوعيتها داخلية وخارجية ، فحين تصدق العاطفة ، ويعلن الشاعر عن أشياء يعتقدونها ، ويفخر بنسبتها إليه ، تأتي الموسيقى خفيفة سهلة متراقصة تناسب انسياباً ، ذلك من حيث تناسق جمل النص الشعري ، وسهولة كلماته واتصال فقراته ، هذا في الموسيقى الداخلية ، فإذا جئنا إلى النوع الآخر وجدنا البحر الذي ينظم عليه الشاعر؛ وقد تناسب مع تلك العاطفة السريعة الفرحة تناسباً تاماً ، انظر إليه يقول متحدثاً عن أهل البيت ، مفتخراً بهم ومعدداً صفاتهم :

رهطُ النَّبِيِّ وألّه وبنوه من	دون البنين ونبتّه مُتْرَعِرَعَا
والمُصْطَفَيْنَ المرتضين من الورى	والمفضلين بما حوّه تَسْرَعَا
والمطعمين إذا الرياح تناوحت	شُعْتَ الأرامِلِ واليتامى الجوعَا
والحازمين العازمين شهامةً	والقائلين الفاعلين تبرُّعَا
والفاتقين الراتقين سياسةً	والطاعين الضاربين تشجُّعَا (١)

الشاعر مفتخر بأجداده ، محب لهم ، لذا تراه يأتي بكلمات سريعة متلاحقة ،

(١) الديوان : ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

وكأنه يريد أن يفرغ شحنات اختزنها ليلقي بها إلى قارئه ، ثم انظر إلى : هذه السجعات المتمثلة في قوله: " تسرعاً ، الجوعاً ، تبرعاً " وتلك الجناسات الناقصة التي تحوي بين الجرس الموسيقي ما يعلن عن عاطفة الشاعر، ويبين عن مشاعره، وذلك من مثل قوله: " المصطفين - المرتضين - الحازمين - الفاتقين - الراتقين " ، وأخيراً يأتي استخدامه لبحر الكامل، صاحب التفعيلة الواحدة المتكررة، وهو ما يشير إلى إلحاح الشاعر على فكرته ، ورغبته في إقناع متلقيه بها .

وفي مقابل هذه العاطفة تأتي عاطفة الحزن والتشاؤم ، فيوائم الشاعر بينها وبين الموسيقى ؛ مواعمة تؤكد حرصه على أن تعلن الموسيقى عن مشاعره ، وتبين عن فكره ، فخير الموسيقى - كما يقول سبنسر - (ما تتمشى مع الأفكار، وتتساق مع المعاني ، وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات النفس) (١) .

والحق أن الموسيقى عند " تميم " كانت متجاوبة في معظمها مع حالاته النفسية ومواقفه المختلفة ، وقد رأينا كيف أعلنت الموسيقى عن عاطفة الفرح ، وها هو ذا تنتابه حالة من الحزن ، فتجاوب الموسيقى مع تلك الحالة ، وتعبّر عنها ، انظر إليه يقول في رثاء أهل البيت :

خَذَلُوا النّبِيَّ بِقَتْلِهِمْ وَتَعَصَّبُوا لِلْجَاهِلِيَّةِ
هَدَمُوا الشَّرِيعَةَ وَالشَّرِيَّةَ عَةً غَضَّةً الْمَبْدَأُ طَرِيَّةَ
لَمْ تَخَفَ عَنِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ يَّةٍ مِنْ فِعَالِهِمْ خَفِيَّةِ (٢)

إن الكلمات تعلن عن جرح غائر، وحزن دفين ، ولا أدل على ذلك من استخدامه لألفاظ من مثل : " قتلوا، هدموا " ، ولا يزال الشاعر يستخدم المحسنات بوصفها مفردة من مفردات الموسيقى الداخلية ، نرى ذلك في الجناس المستخدم في قوله : " هدموا الشريعة والشريعة " ، ثم انظر إلى ذلك التكرار الذي يشير إلى

(١) د/ محمد عبد المنعم خفاجي، د/ محمد نايل: بين الأدب والنقد ص٣٢، الطبعة الأولى.

(٢) الديوان ص٤٥٦ .

تقدیس الشاعر للشريعة ، واهتمامه بأمرها . إن الشاعر حزين مكروب لما حدث لأهل البيت ؛ لذا تشعر بأنفاسه المتلاحقة التي تنساب من خلال كلمات وعبارات متسارعة متتابعة ، وهكذا رأينا " تميماً " وقد استعان بمؤثرات موسيقية متعددة ، أبرزها الوزن والإيقاع والأسلوب المنغم واللفظ الموسيقي ، بحيث ينشأ من الجمل رنين صوتي متلائم مع صوت العاطفة المتردد في وجدانه ، ولذلك كثيراً ما يفعل الشاعر بتجربته ، فترتفع حرارة العاطفة عنده ، ومن ثم نجد أنفسنا أمام تجربة صادقة، وحالة شعورية تؤثر تأثيراً مباشراً في التعبير الشعري، فصدق التجربة ، وحرارة العاطفة - لا شك - ينعكس على إبداع الشاعر، والموسيقى الخارجية هي عنصر من عناصر التعبير الشعري ، وهي بذلك تتأثر بانفعالات الشاعر ، ودرجة صدق تجربته. وها نحن نرى " تميماً " وقد ارتفعت حرارة العاطفة عنده، وإدراكنا صدق مشاعره، ومن ثم رأينا موسيقاه الخارجية تنساب انسياباً في سهولة ويسر مع نغم رائق، فالقارئ لا يشعر بتعسر الشاعر في اختيار الكلمات، أو تعسفه في اختيار البحر الشعري ، الذي يجعله إطاراً لإبداعه، ومن ثم لمشاعره وأحاسيسه ، وها هو ذا يمدح أخاه " العزيز " فنلمح الصدق من خلال مفرداته وتراكيبه ، كما نلمحه من خلال موسيقى عذبة مناسبة تتمثل في كلمات رقيقة سهلة ، وتراكيب بسيطة ، بعيدة عن التعقيد ، وبحر موحد التفعيلة ، لا تشعر بالثقل عند سماعك لنغماته يقول :

شهرُ الصَّيَامِ أَجَلُ شَهْرٍ مُقْبِلِ	وبه يُمَحَّصُ كُلُّ ذَنْبٍ مُثْقَلِ
وكذلك أنت أبرُّ من وطِيءِ الحِصَا	وأجلُّ أبناءِ النَّبِيِّ المرسلِ
يا حُجَّةَ الرَّحْمَانِ عند عباده	وشهَابَهُ في كلِّ أمرٍ مُشْكَلِ
من لم يكن في صَوْمِهِ مُتَقَرِّبَا	بك لئلاَّه فَصَوْمُهُ لم يُقْبَلِ

فَسَلِمَتْ لِلإِسْلَامِ تَحْمِي شَرَعَهُ بِالْمَشْرِفِيَّةِ وَالرَّمَا حِ الذَّبَلِ (١) (٢)

وظاهرة التكرار هي أكثر مظاهر الموسيقى الداخلية وضوحاً في شعر " تميم " ، وهو يستخدمها للإعلان عن حالة شعورية تغمره ، أو عاطفة معينة تنتابه ، فهذا هو ذا يعيش حالة من السعادة والنشوة ، ويسيطر على مخيلته جو من الفرح المصحوب بشيء من الضوضاء والصخب ، فنراه يكرر كلمات مثل : شباب وسحاب وصوب وغيرها ؛ ليدل ذلك على حالة من البهجة والسرور يقول مثلاً :

فحُبِّكَ وَالزَّمَانُ وَأَنْتَ فِيهِ شَبَابٌ فِي شَبَابٍ فِي شَبَابٍ (٣)

ويقول :

يُدِيرُ بِرِيقِهِ وَيَدِيهِ خَمْرًا شَرَابٌ فِي شَرَابٍ فِي شَرَابٍ (٤)

ويقول :

يَدَاهُ ثُمَّ وَجْنَتُهُ وَقَلْبِي شِهَابٌ فِي شِهَابٍ فِي شِهَابٍ (٥)

وهكذا تمضي القصيدة حيث يركز الشاعر على كلمات بعينها ، فيكررها تكراراً ينقل شعوره إلى متلقيه ، وهنا يبرز دور الموسيقى في تعويض عجز اللغة عن (سرعة وقوة وفاعلية التحرك بالشعور الداخلي لدى الشاعر نحو التجربة الشعرية أولاً ، ثم سرعة وقوة وفاعلية نقل هذا الشعور من التجربة الشعرية إلى متلقي هذه التجربة) (٦) . وهكذا بدا لنا ما تؤديه الموسيقى من دور في نقل التجربة ، وإظهارها في ثوب جديد قشيب .

(١) الذبل : الدقيقة ، والقنى الذابل : رقيق لاصق بالليط . القاموس مادة (ذ ب ل) .

(٢) الديوان ص ٣٤٤ .

(٣) نفسه : ص ٥٧ .

(٤) نفسه : ص ٥٧ .

(٥) نفسه : ص ٥٨ .

(٦) د/ عبده عبد العزيز قفيلة : التجربة الشعرية عند ابن المقرب ص ٧٠ .

الخاتمة

لقد شكلت التجربة الشعرية عند " تميم " ميداناً فسيحاً ، تجول الباحث في أرجائه ، وتنقل بين جنباته ، فكانت هذه الدراسة التي استهلها صاحبها بحديث موجز عن الشعر ، ثم وقفة مع التجربة الشعرية تناولت حقيقتها وتكوينها ، وأثرها في العمل الفني ، وانطلاقاً من هذا التمهيد ولج الباحث إلى موضوع بحثه الرئيس ، فكانت روافد التجربة أو مصادرها المتمثلة في " المشاعر - الطبيعة - العقيدة - الغربة والحنين - الزمان - المكان " ؛ هي الميدان الأول من ميادين هذا البحث ، بينما كانت أبعاد التجربة وآفاقها المتمثلة في التجربة الذاتية - التجربة الاجتماعية - التجربة الخيالية ؛ هي المجال الثاني من مجالات هذا البحث وأخيراً جاءت علاقة التجربة ببنية القصيدة عند " تميم " ، فشكلت آخر مراحل تلك الدراسة ، وفيها تناول الباحث علاقة التجربة باللغة والصورة والموسيقى في شعر " تميم " ، وقد تمخضت هذه الدراسة عن نتائج متعددة منها :

١. أكدت الدراسة خصوبة التجربة وثراءها عند الشاعر ، وهو ما أشار إليه تعدد روافدها وكثرة مصادرها .
٢. أبرزت الدراسة قدرة التجربة عند الشاعر على الكشف عن الجوانب المختلفة لشخصيته .
٣. تأكد للباحث وجود علاقة متبادلة بين التجربة عند " تميم " وعناصر النص الشعري المختلفة .
٤. أثبتت الدراسة اتساع نطاق التجربة الذاتية ، المعبرة عن المشاعر والأحاسيس في إبداع الشاعر ، بينما قلت مساحة التجارب الإنسانية عنده ، ومع ذلك قد كانت له رؤية تتسع أحياناً لتشمل الكون والحياة والناس ، ومن خلالها عالج تجارب وقضايا إنسانية .

٥. بدا لنا من خلال شعر " تميم " حالات نفسية متباينة ، ومواقف شعورية مختلفة ، أبرزت البعد النفسي لشخصيته .
٦. لم تستوف التجربة التاريخية عند " تميم " كل المقاييس التي وضعها النقد الحديث لهذا النوع من التجارب ، غير أن ذلك لا يقلل من قدرات الشاعر ؛ لأن مثل هذه المقاييس مرهونة بظروف سياسية واجتماعية وثقافية ربما لم تتوفر للشاعر .
٧. يعد شعر " تميم " وثيقة تاريخية واجتماعية لعصره ؛ وذلك من خلال صور اجتماعية لم ينقلها الشاعر نقلاً حرفياً ، وإنما أضاف إليها من خياله وخلع عليها من مشاعره .
٨. استطاع الشاعر المواءمة بين لغته وعاطفته ، والربط بين التعبير والموقف الشعوري في إبداعه .
٩. لقد كان للتجربة عند " تميم " أثرها على التصوير ، فاستوعب شعره معظم أشكال الصورة الفنية ، كما كانت الصورة عنده مرآة لتجربته .
١٠. قامت الموسيقى بدور كبير في نقل التجربة ، وتجليتها ، وتصويرها في ذهن المتلقي .
- تلك أهم النتائج التي أفرزتها الدراسة ، وتشير كثرتها وتعددتها بالإضافة إلى المعاشة الطويلة بشعر " تميم " إلى ثراء إبداعه ، وخصوبة إنتاجه ، ومن ثم فإن الباحث يوصي إخوانه الباحثين وزملاءه الدارسين بالتوجه إلى شعر " تميم " ، وتخصيصه بدراسات يمكن أن تكون عامة ؛ تركز على البناء الفني في شعره عموماً ، ويمكن أن تكون خاصة بحيث تركز على جانب من جوانبه ، وهي كثيرة لعل أبرزها : العقيدة أو الطبيعة أو المجتمع في شعره ، أو دراسة مستويات اللغة ، أو الصورة في إبداعه وتلك ظواهر في شعر " تميم " يمكن الوقوف عندها ، ودراستها دراسة تكشف عن إبداع ذلك الشاعر ، وقوة موهبته .

هذا وبالله التوفيق

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر : الحلة السیراء ، تحقيق : د / حسين مؤنس ، الناشر : دار المعارف - القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م .
- ابن حجر : لسان الميزان - الناشر مؤسسة الأعلمی للمطبوعات .
- ابن خلکان : وفيات الأعیان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق / إحسان عباس - دار صادر بیروت .
- ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده تح/ محمد محي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة ط ٣ / ١٩٦٣ م .
- ابن عدي : الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين وعلل الحديث لابن عدي تحقيق / عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، الناشر : دار الكتب العلمية ط الأولى ١٩٩٧م
- ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر بیروت ط ٣ / ١٤١٤هـ .
- أبو عبادة الوليد بن عبيد (البحثري) : ديوان البحثري - الجزء الأول دار الكتب العلمية - بیروت - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- أبو المعالي محمد بن الغزي : ديوان الإسلام ، تحقيق/ سيد كسروي حسن طبعة : دار الكتب العلمية ، بیروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .
- أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني : شرح المعلقات السبع - دار الكتب العلمية - بیروت . لبنان ط ١ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - تحقيق د/ بشار عوَّاد معروف . - دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٣م .
- أحمد بن حنبل : مسند أحمد - تحقيق / شعيب الأرنؤاط وآخرين ، مؤسسة

- الرسالة بيروت ط : الأولى ١٤٠٨ هـ .
- أحمد بن علي المقرئزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئزية - مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
 - أحمد سيد محمد : نقائص ابن المعتز وتميم بن المعز ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٨١ م .
 - تميم بن المعز : ديوان تميم بن المعز (الباكوره) تقديم أ.د/ إبراهيم الدسوقي جاد الرب . الهيئة العامة لقصور الثقافة الذخائر عدد (٨٤) ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ .
 - جلال الدين السيوطي : المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، شرحه : محمد أحمد جاد المولى بك، و محمد الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، ط/ ٣ ، دار التراث القاهرة .
 - الجوذري أبو علي منصور العزيزي : سيرة الأستاذ : جوذر ، تحقيق / محمد كامل حسين، ومحمد عبد الهادي شعيرة - دار الفكر العربي القاهرة (د.ت) .
 - حسن أبو المجد محمد : العاطفة وأثرها في تشكيل لغة الشعر - حولية كلية اللغة العربية جرجا العدد التاسع ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
 - الذهبي في تلخيص كتاب الموضوعات - الناشر : مكتبة الرشد الرياض . وميزان الاعتدال للذهبي ج٣ ص٣٢٤ الناشر : دار المعرفة .
 - روستريفورها ملتون : الشعر والتأمل ص٦٩ ، ترجمة د/ محمد مصطفى بدوي - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر أبريل ١٩٦٣ م .
 - صابر عبد الدايم: التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث دراسات وقضايا ، مؤسسة مهيب للطباعة - الزقازيق ط / ٢ ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م .
 - صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي : الوافي بالوفيات طبعة : دار صادر بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

- عباس محمود العقاد : شاعر الغزل عمر ابن أبي ربيعة ، المجموعة الكاملة - السادس عشر - تراجم وسير ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ م .
- عبد الحميد حسن : الأصول الفنية للأدب ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٤ م .
- عبد الحميد هلال عبد العزيز - في النقد الأدبي الحديث - مطبعة الأمانة ١٩٨٢ م .
- عبد اللاه محمود حسن محروس : الظاهرة الأدبية في شعر الخوارج - مطبعة الأمانة الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- عبد المجيد عطية : تميم بن المعز الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٧ م .
- عبده عبد العزيز قلقيلة : التجربة الشعرية عند ابن المقرب مضمونها وبنائها الفني - النادي الأدبي بالرياض ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م الطبعة الأولى .
- القاضي النعمان : المجالس والمسائرات مجلد ج١ مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠ .
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي : القاموس المحيط - الهيئة المصرية للكتاب ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- محمد السعدي فرهود : قضايا النقد الأدبي الحديث - دار الطباعة المحمدية الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- محمد بن أبي بكر الرازي : مختار الصحاح - ترتيب محمود خاطر طبعة دار المعارف
- محمد عبد المنعم خفاجي : النقد العربي الحديث ومذاهبه - مكتبة الكليات الأزهرية - مطبعة الفجالة الجديدة .
- د/ محمد نايل : بين الأدب والنقد ، الطبعة الأولى .

- محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث - طبعة نهضة مصر للطباعة ١٩٩٦ م .
- محمد مندور : الأدب ومذاهبه - نهضة مصر للطباعة .
- مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- مصطفى عبد اللطيف السحرتي : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث - تهامة للنشر والمكتبات ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م .
- ميمون بن قيس الأعشى الكبير : ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس - تقديم وشرح د / محمد أحمد قاسم - المكتب الإسلامي - الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .